بسم الله الرحمن الرحيم

إستانبول – ٢٠١٠

إستانبول ٢٠١٠م

دار الأرقم

تصميم:
Râsim Şakiroğlu, Anar Gasımov

الطباعة :

مطبعة الأرقم

الطبعة الثانية

ISBN: 978-9944-831-55-0

www.worldpublishings.com/sa

العنوان :

Organize Sanayi Bölgesi Turgut Özal Cad.
No: ١١٧/٤ Başakşehir / İSTANBUL

Tel: (+٩٠ ٢١٢) ٦٧١ ٠٧ ٠٠ (Pbx) Faks: (+٩٠ ٢١٢) ٦٧١ ٠٧ ١٧

الشخصية المثالية الفريدة

محمد رسول الله

صلّى الله عليه وسلم

تأليف

عثمان نوري طوبّاش

ترجمة

د. عبد الله المصري

راجعه وحققه وصححه

د. آدم أقين

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

عرّفنا الحق ﷻ برسوله ﷺ فقال:

«وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» (الأنبياء، ١٠٧)



«يَا اَيُّهَا النَّبِيُّ اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِيًا اِلَى اللّٰهِ بِاِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا»

(الأحزاب، ٤٥-٤٦)



«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيرًا»

(الأحزاب، ٢١)





«وَاِنَّ لَكَ لَاَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَاِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم، ٣-٤)



«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا اَعْمَالَكُمْ» (محمد، ٣٣)



«وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَالرَّسُولَ فَاُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ اَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ اُولٰئِكَ رَفِيقًا» (النساء، ٦٩)



«اِنَّ اللّٰهَ وَمَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الأحزاب، ٥٦)

صدق اللّٰهُ العظيم



المقدمة

نحمد الله تعالى حمدًا وثناء دائمين على أنه قد منّ علينا وأحسن إلينا وشّرفنا بأن جعلنا أمة لرسوله وأرسل إلينا تاج الأنبياء كلهم وحبيب الله محمداً ﷺ نبيا ورسولا.

والصلاة والسلام أبدًا على سيدنا محمد ﷺ شمس الشموس ونور الحقيقة والهداية المنير دائمًا في طريق السعادة للبشرية كلها.

أرسله الله تعالى للبشرية في أشد أوقاتها تأزمًا وعسرة وأنعم الله به على الإنسانية رحمة للعالمين في تلك الفترة التي غرقت فيها الدنيا في بحار الظلم والظلمات.

وأكرمنا الله به مثل نجم الثريا الذي بزغ من الآفاق العالية وجعله نورا يضيئ على الكواكب والنجوم والشموس التي كانت قد لبست رداء الظلام على الدنيا والتي كانت تعيش مجتمعاتها كالسائبة في الوحشة والغفلة والعصيان. أنعم به الله ﷻ على الموجودات كلها رحمة أبدية لا تنقطع، رحمة



على الأحياء والجمادات، والحجر والشجر، والنهر والبحر، والأرض والسماوات، والزمان والمكان وعلى الإنسانية خاصة، فكان وسيلة للبركة والهداية والرحمة والنجاة.

فهو رحمة؛ لأن الوجود كله قد خلق إكبارًا وتشريفًا له وبقدر محبة الوجود للرسول ﷺ تعلو قيمته في نظر الحق ﷻ.

وهو رحمة؛ لأن عطفه وحنانه قد شمل الإنسانية كلهم والمخلوقات كلها.

وهو رحمة؛ لأن الله تعالى تفضل به منبعًا لماء الحياة الأبدية للأفئدة والعقول كلها، ومصدرًا للسعادة الوجدانية والبركة الدائمة.

وهو رحمة؛ لأن الله تعالى أكرمه بالقرآن مرشد الهداية الخالد.

وهو رحمة؛ لأنه أحبُّ رسول إلى الله ﷻ وأعزُّ مخلوق عليه وهو الرسول الذي شرّفه الله برحلة المعراج.

وهو رحمة؛ فلولاه لتحولت العوالم كلها إلى صحارى قاحلة ووحشية.

وهو رحمة؛ لأن الكون قد خلق من نوره.



وهو رحمة؛ فكل جمال انعكاس منه، والجمال قد خلق إكرامًا لمحياه.

وكل زهرة في هذا العالم قد حُرمت من نوره لم تتفتح، فلولاه لما خُلق شيء في الوجود، وبسببه كان وجودنا مشهودا. فهو بُرعمة إلهية من نور كامل لا تذبل بل تزداد بهاءً ونضارة كلما مرت الأيام.

وهو رحمة؛ لأن الله تعالى بذاته قد أعلى قدره وقيمته مصليًا عليه على الدوام.

وهكذا فإن العوالم كلها تحت سقف نبوة الرحمة المهداة رسول الله ﷺ قد تذوقت راحة البال والسكينة الحقيقية، والإنسانية التي اختنقت وباتت تحتضر بدخان العصيان في دهاليز الجاهلية قد بدأت تلتقط أنفاس الحياة المتجددة من أبواب العلم والحقيقة والعرفان التي فتحها رسولنا الأكرم ﷺ وبدأت تبسط جناحيها محلقة إلى السماوات الفسيحة.

لقد كانت الضمائر مثل الأحجار الصلدة فتحولت طينًا طريًا في يديه المباركتين. وكانت القلوب مكدّرة ممرغة في الأوساخ والصدأ، فاغتسلت من نبع مائه البلوري وتطهرت، وحلّ النور فيها مكان الظلمة والسواد.



فوحشي الحبشي قبل أن يسلم، كان رجلًا قاسيا عنيداً يقتل الناس، ولكن بعد أن سلّم قياده لتربية الرسول ﷺ أصبح صحابيًا رقيق القلب بكّاء ومثله الكثيرون.

كانت أرواحهم قد أشرفت على الفناء بين مخالب ذميم الصفات، فإذا بهم بعد أن شربوا من نبع الهداية عرفوا الحياة الأبدية، ونال كلهم الفخر والعزة والعظمة، وقُرنت أسماؤهم دومًا بلقب سيدنا محمد ﷺ.

كل ذلك يوضح أن رسولنا الأكرم ﷺ هو أكبر معجزة أبدعها الحق ﷻ وتفضل به علينا ولقد كان معجزة من جميع النواحي الظاهرة والباطنة، فهو الكامل المكمل الكريم المكُرم الحبيب المحبوب.

ولأنه كان رحمة وهدية وإحسانًا من الخالق ذي الجلال لكل العالمين، لذا فكل الصالحين والأصفياء والأولياء والحكماء والفاتحين أقطاب الحقيقة في تاريخ البشر، ما هم إلا انعكاس لذلك النموذج، بل هم جزء منه مثل القمر الذي يعكس ضوء الشمس.

وعلى هذا فطريق القربى من **الله** ﷻ ونيل رضائه يمر من محبة الرسول ﷺ واتباع سنته. ويوضح الحق ﷻ هذه الحقيقة في آياته الكريمة فيقول:



«قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونٖي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحٖيمٌ» (آل عمران، ٣١)

ويقول الحق ﷻ في موضع آخر:

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اَطَاعَ اللّٰهَ وَمَنْ تَوَلّٰى فَمَا اَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفٖيظًا» (النساء، ٨٠)

وكما تؤكد الآيات فإن المعيار الوحيد لحُب الحق ﷻ هو أن تكون متبعًا لرسول الله ﷺ مرتبطًا به محلقًا حوله كالفراش، وبعكس ذلك فإنه لا يعتدّ بهذا الإيمان. فالمعيار الوحيد لحب الله هو اتباع نبيه. تلك هي الحقيقة التي لا يستطيع أن يغفل عنها كل من يؤمن بالله تعالى. وعلى ذلك فيجب في تلك الحال أن يكون سيدنا رسول الله ﷺ حاضرًا في كل وقت وبكل ذرة من حياتنا، ويجب أن تكون شخصيته النموذجية الفريدة معيارًا متميزًا في بناء شخصيتنا ومن أجل تحقيق ذلك فإن أكبر حاجاتنا ضرورة هي معرفة الرسول عن قرب وإدراك حياته عن قرب أشد، حتى معرفة الأنفاس التي كان يتنفسها. كما يجب أن يتوحد نبضات قلوبنا مع قلبه وأن نكون مثل أصحابه الكرام ﷺ الذين عشقوا النبي واحترقت أكبادهم محبة له وشوقًا إليه.



ورغم أنه ليس من الممكن أن نصل نحن العاجزين إلى المستوى اللائق به، فإنه لو لم نفعل شيئًا سوى أن نسلك طريقه وأن نكون معه على هديه لَكفى. فيا لها من سعادة كبيرة لو أننا حذونا وتمثلنا ولو بنبذة من شخصيته التي لا نظير لها والتي هي باب الوصول الأبدي.

ولتحقيق هذا فقد سعينا إلى تدوين هذا الكتاب الذي لُحمته النقصان وسُداه العجز -والذي نضعه بين أيديكم على أمل أن يعرّفكم بشخصية النبي ﷺ العظيمة عن قرب- وقد أعددنا خلاصة المعلومات الخاصة بشخصية الرسول العظيمة من تلك المعلومات التي وردت في كتبنا السابقة. وربما لأن حديثنا مهما طال فلن يوفيه حقه فإننا نجد أنفسنا مضطرين أن نشكر الله ﷻ على أكبر نعمة إلهية أنعم بها علينا وهي رسوله ﷺ سواء بالحديث عنه، أو ذكر سيرته أو العيش على هديه وسنته.

والواقع أن أكبر وظيفة لنا على قدر ما تتحمل قدرتنا وقوتنا، هي أن نكون جسرًا يحمل رحمته وحضوره الأبدي -الذي شمل العالمين كلهم- إلى عصرنا الحالي المختنق بالأزمات الجديدة وأن تعرف الإنسانية كلها -في أجمل



شكل وبأفضل لغة- تلك المعجزة التي بلغت ذروة الكمال. وأكبر شرف لنا يمكن أن نحرزه هو أن نقدم النبي ﷺ في أجمل صورة.

فيا ربِّ اجعل لنا نصيبًا من شخصيته المعجزة النموذج التي ليس لها نظير، واجعل من قلوبنا قصورًا عامرة بحبه وعشقه، وارزقنا التوفيق والنجاح في امتحان التقوى المتعلق بالتسليم له والارتباط به، واجعلنا أهلًا لرضاك ومحبتك. آمـــــين[1]



1. أدعو الله ﷻ وأتضرع إليه أن تكون جهود طلابنا الأعزاء الذين بذلوا كل الجهد وقدموا كل العون في إعداد هذا الكتاب على أن تكون صدقة جارية لهم.



القسم الأول

- الشخصية المثالية الفريدة
- الأسوة الحسنة / أجمل مثال وقدوة

الشخصية المثالية الفريدة شخصية سيدنا محمد ﷺ

لقد وهب الله رسوله محمدا ﷺ هدية غالية وعزيزة للبشرية وذلك لمكانته وقيمته العالية عند الله ﷻ. واعتبر الإطاعة لحبيبه إطاعة له والبيعة لحبيبه بيعة له ﷻ. وشرط الله ﷻ لنيل حبه والوصول إليه اتباع نبيه ﷺ. وتشير الآيات الكريمة إلى هذا المعنى:

«وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» (الأنبياء، ١٠٧)

وكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُنَادِي مخاطبا أصحابه بهذا المعنى:

" يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ" (الدارمي، المقدمة، ٣)

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اَطَاعَ اللّٰهَ» (النساء، ٨٠)

«اِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ اِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللّٰهَ» (الفتح، ١٠)

«قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (اٰل عمرٰن، ٣٠)



وقد منع **الله** ﷻ بشكل قطعي أن يُقَدَّمَ أيُّ شيء أمامه ﷻ وأمام حبيبه ورسوله ﷺ. حيث قال:

«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللّٰهِ وَرَسُولِهٖ وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (الحجرات، ١)

وتأمر هذه الآية الكريمة وتحدد البقاء والعيش ضمن حدود القرآن والسنة السنية بدون إفراط ولا تفريط. ويجب طبقا لذلك عدم الخروج خارج إطار أوامر **الله** ورسوله وتوجيهات القرآن والسنة. حيث إن رسول **الله** ﷺ كان قد ربّى أصحابه طبقا لتوجيهات ووحي القرآن. لذلك عندما كان يسأل أصحابه شيئا كانوا يجيبونه قائلين **"الله ورسوله أعلم"** حتى ولو أنهم كانوا يعرفون تلك المسألة. من أجل ذلك كانوا قد وصلوا القمة في آداب السلوك واللطافة والرقة وحسن الأدب.

لقد طلب **الله** ﷻ من المؤمنين أن يكونوا يقظين وفي غاية الأدب والرقة في خطابهم وسلوكهم مع رسول **الله** ﷺ وعدم رفع أصواتهم لدى مخاطباتهم وندائهم للرسول ﷺ. وإن أقل



خروج أو شذوذ خارجَ هذا الإطار سيبطل أعمالهم. والآيات الكريمة التي تدل على ذلك كثيرة ومنها:

«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَرْفَعُوا اَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَنْ تَحْبَطَ اَعْمَالُكُمْ وَاَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» (الحجرات، ٢)

وأيضا جعل الله ﷻ تعظيم قدر الرسول من قبل العباد امتحانا لدرجة وصولهم إلى تقوى القلوب. واعتبر الله ﷻ وصول الإنسان إلى درجة العبودية المنشودة والمطلوبة تعظيم حبيبه وتوقيره. وعدَّ واعتبر ﷻ عدم التمسك بآداب مخاطبة الرسول مِن أكبر آثار الجهل:

«اِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ اَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ اُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوٰى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاَجْرٌ عَظِيمٌ. اِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (الحجرات، ٣-٤)

وفي هذا الباب من الممكن أن نستدل بهذه الآية الكريمة أيضا:



«لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا» (النور، ٦٣)

ويفسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بقوله: كانوا يقولون: "يا محمد، يا أبا القاسم" فنهاهم **الله** عز وجل عن ذلك **إعظاما لنبيه** ﷺ قال: **"فقولوا: يا نبي الله، يا رسول الله"** (ابن كثير، تفسير، النور، ٦٣)

إن **الله** عز وجل لم يخاطب نبيه محمدا باسمه وبكنيته كما خاطب إخوته من الأنبياء بأسمائهم وإنما خاطبه بصفاته "يا نبي **الله**، يا رسول **الله**" وذلك تعظيما لقدره. وبهذا قد لقن **الله** لعباده درسا عظيما في الأدب والسلوك تجاه حبيبنا ونبينا محمد ﷺ.

وحذر **الله** عز وجل الذين يجهلون مكانة رسول **لله** وقيمته العالية حيث أقسم **الله** عز وجل بحياة حبيبه الذي هو بمثابة التفسير الحي للقرآن الكريم قائلا:

«لَعَمْرُكَ اِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ» (الحجر، ٧٢)

ولم يُعثر في القرآن الكريم على قسم شبيه بما وقع لنبينا ﷺ.

ويدل على عظمة قدره ومكانته العالية لدى ربنا عز وجل أن يصلي عليه مع ملائكته وأَمْرُهُ وحثه المؤمنين بأن يصلوا



ويسلموا عليه كثيرا وأن لا يغفلوا عن ذكره بقلوبهم وألسنتهم. حيث يقول:

«اِنَّ اللّٰهَ وَمَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الأحزاب، ٥٦)

ولم يكن تكريم الله ﷻ وإحسانه للنبي ﷺ محدودا بهذه الهبات العظيمة وإنما تستمر هذه الهبات والعطاءات إلى يوم يبعثون. والدليل على ذلك:

«وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضٰى» (الضُّحٰى، ٥)

بالإضافة إلى كل ذلك فإنّ الله ﷻ قد جعله أشرف الرسل وفضَّله على جميع الأنبياء والرسل بدرجات عالية كما جعل له مكانة خاصة بينهم. ويدل عليه قوله تعالى:

«تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلٰى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللّٰهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ» (البقرة، ٢٥٣)

«بَعْضَهُمْ» يعني أحدهم. كلمة «بعض» في اللغة العربية تفيد «أحد». والمقصود من هذه الكلمة في هذه الآية: نبينا محمد ﷺ.



عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: جَلَسَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَنْتَظِرُونَهُ، فَخَرَجَ حَتَّى إِذَا دَنَا مِنْهُمْ سَمِعَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ، فَتَسَمَّعَ حَدِيثَهُمْ فَإِذَا بَعْضُهُمْ يَقُولُ: عَجَباً إِنَّ اللّٰهَ اتَّخَذَ مِنْ خَلْقِهِ خَلِيلاً فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُهُ. وَقَالَ آخَرُ: مَاذَا بِأَعْجَبَ مِنْ «**وَكَلَّمَ اللّٰهُ** مُوسٰى تَكْلِيمًا» وَقَالَ آخَرُ: فَعِيسَى كَلِمَةُ اللّٰهِ وَرُوحُهُ. وَقَالَ آخَرُ: وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللّٰهُ. فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ فَسَلَّمَ وَقَالَ:

"قَدْ سَمِعْتُ كَلاَمَكُمْ وَعَجَبَكُمْ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللّٰهِ وَهُوَ كَذلِكَ ، وَمُوسَى نَجِيُّهُ وَهُوَ كَذلِكَ وَعِيسَى رُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ وَهُوَ كَذلِكَ ، وَآدَمُ اصْطَفَاهُ اللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ كَذلِكَ ، أَلاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللّٰهِ وَلاَ فَخْر؛ وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْتَهُ آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ وَلاَ فَخْرَ؛ وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ؛ وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ غَلَقَ الْجَنَّةِ وَلاَ فَخْرَ ، فَيَفْتَحُ اللّٰهُ فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ فَخْرَ؛ وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ عَلَى اللّٰهِ وَلاَ فَخْرَ" (الترمذي، المناقب، ١ /٣٦١٦؛ الدارمي، المقدمة، ٨)

وقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ:



"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ" (الترمذي، تفسير القرآن، ١٧ /٣١٤٨)

وبسبب جميع هذه الصفات والخصائص العالية للرسول ﷺ طلب **الله** ﷻ من المؤمنين أن يذوبوا ويفنوا في الرسول ﷺ وأن يعيشوا في حالة وكأنهم يعرضون أعمالهم على الرسول الكريم. وأكبر دليل على ذلك أن **الله** ﷻ أمر المؤمنين بأن يسلموا على الرسول ﷺ وهم في قعدة التشهد بجميع الصلوات وكأنه واقف أمامهم قائلين **"اَلسَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ"** على الرغم من أن قراءة السلام على الشخص في الصلاة تفسد الصلاة.

والإمام **أبو حامد الغزالي** يقول وهو يشرح هذه الحكمة:

"وأما التشهد فإذا جلست له فاجلس متأدِّباً وصرح بأن جميع ما تدلي به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة **لله**. وكذلك الملك **لله** وهو معنى «التحيات» وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم وقل «سلام عليك أيها النبي ورحمة **الله** وبركاته» وليصدق أملك في أنه يبلغه ويَرُدُّ عليك ما هو أوفى منه" (أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، ١/٢٢٤)



وينقل **الشيخ خالد البغدادي** (قدس سره) في الرسالة الرابعة من كتابه **المكتوبات** عن العلامة الشيخ الشهاب ابن حجر المكي في شرح العباب في بيان معاني كلمات التشهد ما نصه:

"وخوطب ﷺ كأنه إشارة إلى أنه تعالى يكشف له عن المصلين من أمته حتى يكون كالحاضر معهم ليشهد لهم بأفضل أعمالهم وليكون تذكر حضوره سببًا لمزيد الخشوع والخضوع"[٢]

والنتيجة أن محمدا ﷺ أحبُّ العباد إلى **الله** ﷻ وأشرف المخلوقات حيث إنه فخر الدنيا والآخرة هادي ومنقذ البشرية في هذه الدار وشفيعهم في الآخرة. وإن آدم أبا البشر عليه السلام عندما أُبعد عن الجنة تاب إلى ربه وطلب منه المغفرة فعفا **الله** عنه بتوسله بنبينا محمد ﷺ كما أنه أصبح منذ أن بعثه **الله** وسيلة لهداية البشرية كلهم. والشاهد على ذلك ما ورد في الحديث الشريف:

"لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب! أسألك بحق محمد لما غفرت لي. فقال الله: يا آدم! وكيف عرفت محمدًا ولم

---

٢. مكتوبات مولانا خالد، ص. ١١٨ لنفس المؤلف، رسالة الرابطة (في هامش كتاب الرشحات لمولانا صفي الدين، ص. ٢٢٥-٢٢٦)



أخلقه؟ قال يا رب! لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت فيّ من روحك رفعت رأسي، فرأيت على قوائم العرش مكتوبا لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك. فقال الله: صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إليّ، ادعني بحقه فقد غفرت لك ولو لا محمد ما خلقتك"[٣]

وهكذا فقد توسل سيدنا آدم عليه السلام في الدعاء بالرسول الكريم ﷺ فعفا الله عنه. وهذا الرسول الكريم ﷺ الذي كان نطفة قد انتقل إلى صلب سيدنا إبراهيم عليه السلام فجعل النار عليه بردًا وسلامًا. وهذه اللؤلؤة الكريمة عندما دخلت إلى صُلب إسماعيل عليه السلام أُنزل الفداء من السموات باسمه.

ومثلما رأينا فإن الأنبياء جميعًا قد نالتهم العناية الإلهية بسبب الرسول الأكرم ﷺ حتى إن سيدنا موسى عليه السلام أراد أن يكون من أمة محمد كي يحصل على البركة والفضل الذي أُعد لأمة محمد ﷺ. فعن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أن سيدنا موسى عليه السلام قال:

---

٣. الحاكم، المستدرك على الصحيحين، بيروت، ١٩٩٠، جـ. ٢، ٦٧٢/٤٢٢٨.



"رَبِّ إِنِّي أَجِد فِي الْأَلْوَاحِ أُمَّة خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَر فاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَال:

رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الْأَلْوَاح أُمَّة هُمْ الْآخِرُونَ -أَيْ آخِرُونَ فِي الْخَلْق سَابِقُونَ فِي دُخُول الْجَنَّة- رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَالَ:

رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الْأَلْوَاح أُمَّة أَنَاجِيلهمْ فِي صُدُورهمْ يَقْرَؤُونَهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلهمْ يَقْرَؤُونَ كِتَابهمْ نَظَرًا حَتَّى إِذَا رَفَعُوهَا لَمْ يَحْفَظُوا شَيْئًا وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَإِنَّ اللهَ أَعْطَاهُمْ مِنْ الْحِفْظ شَيْئًا لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنْ الْأُمَم قَالَ: رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَالَ:

رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الْأَلْوَاح أُمَّة يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ الْأَوَّل وَبِالْكِتَابِ الْآخِر وَيُقَاتِلُونَ فُصُول الضَّلَالَة حَتَّى يُقَاتِلُونَ الأَعْوَر الْكَذَّاب، فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَالَ:



رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة صَدَقَاتهمْ يَأْكُلُونَهَا فِي بُطُونهمْ وَيُؤْجَرُونَ عَلَيْهَا، وَكَانَ مَنْ قَبْلهمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَقُبِلَتْ مِنْهُ بَعَثَ الله نَارًا فَأَكَلَتْهَا، وَإِنْ رُدَّتْ عَلَيْهِ تُرِكَتْ فتَأْكُلهَا السِّبَاع وَالطَّيْر، وَإِنَّ الله أَخَذَ صَدَقَاتهمْ مِنْ غَنِيّهمْ لِفَقِيرِهِمْ، قَالَ: رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَالَ:

رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة إِذَا هَمَّ أَحَدهمْ بِحَسَنَةٍ ثُمَّ لَمْ يَعْمَلهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْر أَمْثَالهَا إِلَى سَبْعِمِائَةٍ، قال: رَبِّ اجْعَلْهُمْ أُمَّتِي. قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد» قَالَ:

رَبّ إِنِّي أَجِد فِي الأَلْوَاح أُمَّة هُمْ الْمَشْفُوعُونَ وَالْمَشْفُوع لَهُمْ فَاجْعَلْهُمْ أُمَّتِي، قَالَ: «تِلْكَ أُمَّة أَحْمَد»

قَالَ قَتَادَة: فَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيّ الله مُوسَى نَبَذَ الأَلْوَاح وَقَالَ «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنْ أُمَّة أَحْمَد»"[٤]

---

٤. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٩٨٨م، جـ. ٢، الأعراف، ١٥٤.



والحاصل أن كل حلقة من سلسلة الأنبياء الهداة المباركين كانت بشير سعد على قدوم المصطفى ﷺ الذي أُرسل رحمة للعالمين.

وفي النهاية فإن النور المنتظر قد نزل إلى عالم الشهود، فقبيل بزوغ شمس يوم الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول للعام الحادي والسبعين بعد المائة الخامسة من ميلاد المسيح تشرف الزمان كل الزمان وتشرف المكان كل المكان.

ومع ظهور النبي ﷺ فاضت رحمة الله تعالى وزادت في هذا العالم. وتغيرت ألوان الصباح والمساء، وتعمقت المشاعر، وتواضعت الكلمات والأحاديث والملذات. واكتسب كل شيء معنى مختلفًا وجمالاً آخر. واهتزت الأصنام و سقطت، وتحطمت الأعمدة والشرفات في قصور مدائن كسرى، وغاضت بحيرة ساوة. وامتلأت القلوب بالبركة والصفاء، وشملت هذه البركة الكون كله أي الأزمنة والأمكنة والكائنات كلها.

لو لم يشُرف سيدنا محمد ﷺ -الذي جمع في نفسه الفضائل كلها- هذه الدنيا لبقيت الإنسانية في الظلم والوحشة



حتى قيام الساعة ولأصبح الضعفاء أسرى الأقوياء ولانتصر الشر على الخير، ولحكم الدنيا الظالمون والطغاة.

وقد أحسن الشاعر إذ يقول:

يا رسول الله لو لم تأت إلى الدنيا

لما تفتحت الورود ولما غرد البلبل ولبقيت الأسماء مجهولة لآدم عليه السلام

ولم يبق للوجود أي معنى ولغرق العالم في الحزن والأسى.

وقد تحدث **مولانا جلال الدين الرومي** (قُدس سره) عن ضرورة أن نشعر بالمنة والفضل لمجيء رسول **الله** ﷺ الذي حطم الأصنام، ونشر العدل على الأرض، ورفع الظلم عن الصدور فقال:

"أيا مسلم هذا الزمان لولا جهاد سيدنا أحمد ﷺ وحماسته وهمته في تحطيم الأصنام لكنت أنت الآن مثل أجدادك تعبد الأصنام".

إن هذا الإنسان الأُمي الذي ظهر في مجتمع جاهلي بعيد عن الحضارة كما أنه أعجز رجال العصر بعلمه وحكمته،

فإنه قد جاء بمعجزة لم يستطع أحد أن يصل إليها ولن يصل إليها أحد إلى يوم القيامة؛ ألا وهي معجزة القرآن الكريم. فالقرآن الكريم تحدث عن الأحداث التاريخية التي حدثت في الماضي، كما تناول الكثير من المسائل العلمية والفنية التي ستحدث في المستقبل، ولم يستطع أحد منذ ألف وأربعمائة عام أن يكذّبه. بينما الحال أن أشهر دوائر المعارف اليوم تضطر كل عام أن تصحح وتجدد من نفسها مضيفة كل عام مجلدًا إضافيًا.

وهذا النبي اليتيم الأمي لم يتلق العلم عن أحد من البشر، بل جاء لينقذ البشرية كلها وليكون ترجمانًا لعالم الغيب، ومعلمًا أكبر في مدرسة الحق عز وجل.

فسيدنا موسى عليه السلام قد جاء بطائفة من الأحكام .وسيدنا داود عليه السلام جاء بالدعاء والابتهال والمناجاة إلى الله تعالى. وسيدنا عيسى عليه السلام أُرسل لتعليم البشر مكارم الأخلاق والزهد. أما سيدنا محمد المصطفي ﷺ نبي الإسلام فقد جاء بهذا كله. فقد علّم الشرائع والأحكام، وعلم الناس تزكية النفس، وعلمهم الدعاء إلى الله بقلب نقي. وعرّفهم مكارم الأخلاق، وكان لهم نموذجًا معاشًا، ووصاهم بعدم



الانخداع بزخرف الدنيا الزائل. وبإيجاز جمع في نفسه مهام الأنبياء أجمعين وقدراتهم جميعها. وتجمعت فيه أصالة النسب والأدب، وسعادة الجمال والكمال.

عاش رسول الله ﷺ في مجتمع جاهلي أربعين سنة وكانت أكثر الكمالات والفضائل التي طرحها بعد ذلك مجهولة لأولئك الناس في ذلك المجتمع. ولم يكن رسول الله ﷺ يُعرَف كرجل دولة وواعظ وخطيب. و لم يكن يُعرف كجندي فضلًا عن الحديث عن كونه قائدًا كبيرًا.

ولكن بلا شك كان بلوغه سن الأربعين نقطة الذروة الكبرى للإنسانية.

فقبل تلك السن لم يكن ﷺ يستمع لأحد يتحدث عن تاريخ الأمم والأنبياء السابقين، ويتكلم عن يوم القيامة وعن الجنة والنار. ولكنه فقط كان يعيش مع نفسه حياة علوية ذات خلق رفيع. ولكن بعد العودة من غار حراء بتلك المهمة الإلهية تغير كل ذلك تمامًا.

وعندما بدأ ﷺ بالدعوة والتبليغ أصيبت الجزيرة العربية كلها بالدهشة والخوف فقد سحرتهم بلاغة النبي ﷺ وخطابته المعجزة وأصبحت مسابقات الشعر والأدب والبلاغة خاوية



على عروشها. ولم يعد أي شاعر يستطيع أن يعلق أشعاره التي فازت في المسابقة على أستار الكعبة. وهكذا أصبح التراث الذي جاء من قرون في ذمة التاريخ. ويُحكى في هذا أن أخت الشاعر المشهور امرئ القيس عندما سمعت الآية الكريمة التي تقول:

«وَقِيلَ يَا اَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ اَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْاَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» (هود، ٤٤)

مضت قائلة:

"لم يستطع أحد أن يقول شيئا. ولا فائدة من تعليق قصيدة أخي على جدران الكعبة. لأنه لم يبق أي مغزى لقول أي شاعر حتى يتباهى به"

وأنزلت معلقة أخيها امرئ القيس التي كانت على مقدمة القصائد من على جدران الكعبة ثم تبعتها المعلقات السبع الواحدة تلو الأخرى.[5]

---

٥. أحمد جودت باشا، قصص الأنبياء وتواريخ الخلفاء، استانبول ١٩٧٦م، جـ. ١، صـ. ٨٣.



وقد علّم رسول **الله** ﷺ الإنسانية كلها المعنى الحقيقي لكون الإنسان خليفة **الله** على الأرض. ووضع أكمل القواعد في المجالات كلها مثل الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية وإدارة السكان والعلاقات الدولية. تلك المجالات التي لم تستطع النخبة من رجال العلم إدراك حكمتها الحقيقية إلا بعد أبحاثهم التي استغرقت جل أعمارهم، وبعد تجاربهم الواسعة على الإنسان والأشياء. ومن المحقق أن الإنسانية كلما تطورت من ناحية المعرفة النظرية والتجربة العملية أمكنها أن تدرك **"الحقيقة المحمدية"** أكثر.

فرسولنا العظيم ﷺ الذي لم يشترك في الحرب إلاّ مرة واحدة كمُشاهد فقط دون أن يتناول سيفًا في يديه، قد أصبح دون أن يتلقى أي تعليم عسكري قائدًا محنكًا، وجنديًا شجاعًا وجسورًا لا يتأخر عن أقسى الحروب اللازمة لتحقيق التوحيد والصلح الاجتماعي على الرغم من رحمته الواسعة التي شملت الإنسانية كلها.

وكان رسولنا ﷺ يطرق الأبواب بابًا بابًا ليبلغ دين **الله** تعالى لبني الإنسان. ولكن التعساء هم الذين رفضوا الهداية وأغلقوا أبوابهم دونه، وخافوا من شمسها أن تصل إليهم،

وظلوا في الظلمات إلى الأبد. حتى إن بعضهم بسبب قساوة قلوبهم تعاملوا معه بغلظة. ولكنه ﷺ كان يتأثر بسبب غفلتهم وجهالتهم وليس بسبب تصرفاتهم القاسية معه. وكان يقول لمثل هؤلاء:

«قُلْ مَا اَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ اَجْرٍ وَمَا اَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ» (ص، ٨٦)

يعني أن النبي ﷺ يريد رضاء الله ﷻ لا غير. وقد نجح رسول الله ﷺ خلال تسعة أعوام في فتح جزيرة العرب كلها بقوة عسكرية تعادل ثلث قوة العدو في كثير من الأحيان. إلا أنه حقق نجاحًا باهرًا في الفتوحات بالتعليم العسكري الذي أعطاه لأهل ذلك العصر غير المنظمين والفوضويين وبالقوة الروحية التي غذّاهم بها وحقق تلك الفتوحات كلها بخسائر ضئيلة جدًا في الأرواح لا تكاد تذكر. وهو في هذه الناحية قد لقن أكبر وأقوى إمبراطوريتين في ذلك الوقت وهما الروم والفرس أقسى الهزائم.

وهكذا استطاع رسول الله ﷺ رغم الظروف السلبية كلها، أن يحدث أكبر انقلاب في تاريخ البشرية، وأن يمحو المظالم



وأن يكفف دموع المظلومين. وكانت يده المباركة تمسح على رؤوس اليتامى، وكانت أنوار رحمته تخلص القلوب من الغم.

وقد عبّر الشاعر التركي **محمد عاكف** عن هذا أجمل تعبير حيث يقول:

حيث آن الأوان وقد كبر ووصل ذلك اليتيم الأربعين،
فإن الأقدام الدامية التي كانت تسير على الرؤس قد تزكت.

ذلك المعصوم حرر الإنسانية في النفخة الإيمانية التي بثها في قلوب الناس،
وصرع القياصرة والكياسرة في حملة واحدة ودمرهم تدميرا

وأنقذ ﷺ العاجزين والمطهدين الذين لم يكن لهم حق سوى الذل والهوان،
وكان لا يخطر على بال الظلم بأنه سيزول يوما إلا أنه قد مات وفطس.

نعم، وكان شرعه المبين الذي أتى به كان رحمة للعالمين،
وقد مد ﷺ أجنحة الرحمة على وطن الذين ينشدون العدل.

كل ما تملكه الدنيا فهي من هباته ﷺ،
المجتمع بأسره والفرد بأجمعه مديون له ﷺ،

فالبشرية كلها مديونة لذلك المعصوم ﷺ،
يا رب اجعلنا من الذين بعثوا على هذا الإقرار يوم الحشر.



لقد كان سبيل سيدنا محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين بحرًا واسعًا، أما سبل الأنبياء الآخرين فكانت أنهارًا تنصب في ذلك البحر. لقد كان رسول الله ﷺ صاحب الأوصاف والميزات الفارقة كلها -المعلومة والمجهولة- لما يقرب من مائة وأربعة وعشرين ألف نبي ورسول -حسب بعض الروايات- جاؤوا قبله، والتي كانت تشكل ذروة الأخلاق والخصال الجميلة. وإضافة إلى التطور الذي أحرزته الإنسانية حتى عصره من ناحية الفكر والحياة، فإن شخصيته تمثل "النموذج المثالي" الذي يمكن أن يواجه احتياجات الإنسانية التي يمكن أن تحدث حتى يوم القيامة. ولهذا السبب فقد بُعث إلى الإنسانية كلها كـ"**نبي آخر الزمان**".

لذا فقد وصف رسول الله ﷺ أخلاقه العالية في بيان بسيط فقال:

"**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**" (الموطأ، حسن الخلق، ٨)

ومرة أخرى فهو لم يترك ميراثًا دنيويًا خلفه، بل ترك للإنسانية كلها أفضل ميراث وأعظمه وهو شخصيته وأخلاقه العظيمة.



الأسوة الحسنة / أجمل مثال وقدوة

لقد كان النبي محمد ﷺ هو الشخص والرسول الوحيد الذي سجل التاريخ حياته كلها كاملة حتى أدق التفاصيل فيها. والواقع أن من كمال الأنبياء أنهم يشكلون أمثلة متفردة في توجيه الإنسانية إلى الحق والخير. وقد انتقلت سلوكياتهم وتصرفاتهم إلى يومنا الحاضر ولكن بقدر محدود ومعين. أما نبي آخر الزمان ﷺ فقد سُجلت حياته لحظة بلحظة، بالشكل الذي يعكس أفعاله وكلامه كله من أبسطها إلى أعظمها وأكملها. وقد سُجلت حياته في التاريخ كلوحة شرف وفخر. فضلًا عن ذلك فإن هذه الأفعال والأقوال قد جاءت بلطف الله تعالى من لدن عصره ﷺ وسوف تصل حتى آخر إنسان يأتي قبيل يوم القيامة.

ولكي نستطيع أن نجنب أنفسنا فتنة الحياة في مواجهة الابتلاء والمصائب والمفاجآت لا بد لنا أن نطبق أخلاق النبي ﷺ العالية مثل: الشكر، والتوكل، والرضا بالقدر، والصبر على البلاء، والعزيمة، والشجاعة، والتضحية، والقناعة،



وغنى القلب، والعمل للغير، والكرم، والتواضع والثبات في مواجهة الحوادث في حياتنا أفضل تطبيق وأجمله.

ولكي يكون هناك نموذج في هذه الأمور كلها، فقد أرسل الحق ﷻ هدية إلى البشرية كلها: ألا وهو سيدنا محمد رسول **الله** ﷺ المرشد الكامل بحياته الطاهرة النموذجية والمثالية.

إن حياة رسول **الله** ﷺ هي النموذج للأجيال القادمة كلها حتى يوم القيامة. وقد تحدث القرآن الكريم عنه فقال:

«وَاِنَّ لَكَ لَاَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ. وَاِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم، ٣-٤)

وقد شكلت شخصية الرسول ﷺ وهديه المبارك ذروة منظومة السلوك البشري بمظاهرها وعلاماتها التي أمكن للإنسان أن يدركها ويستوعبها بشكل كامل. وشخصية النبي القدوة قد أكملت وظيفة الإرشاد فقد كان هو نفسه ﷺ نموذجًا حيًا يعيش في داخل الإنسانية.

وقد قدم **الله** ﷻ شخصية النبي ﷺ للإنسانية جمعاء كأسوة حسنة بحسب التعبير القرآني، فقال سبحانه:



«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَذَكَرَ اللّٰهَ كَثِيرًا»

(الأحزاب، ٢١)

فكل صفحة من حياة سيدنا رسول الله ﷺ تعرض لنا في سائر النواحي كلها جمالا وكمالًا استثنائيًا. فتعرض في حياة الرسول ﷺ جماليات السلوك كلها إما بشكل إجمالي وإما بشكل تفصيلي. ولهذا السبب فإن كل إنسان يمكن أن يجد في حياة النبي الشريفة وفي سنته المضيئة أجمل السلوكيات وأكملها التي يمكن أن يتخّيرها لنفسه.

فرسول الله ﷺ هو القدوة في قيادة الدين، وهو النموذج في رئاسة الدولة. وهو النموذج للداخلين في علاقة محبة إلهية. وهو النموذج بشكره وتواضعه عندما تغمره آلاء ربه.

وهو النموذج بصبره وتسليمه في أوقات وأماكن الشدة. وهو النموذج بكرمه واستغنائه عند الغنيمة. وهو النموذج برحمته وشفقته مع أهل بيته. وهو النموذج برحمته مع الضعفاء والعبيد وأبناء السبيل. وهو النموذج بعفوه ومسامحته للمجرمين.

فلو كنت شخصًا غنيًا صاحب ثروة، ففكر في تواضع وكرم النبي العظيم ﷺ الذي حكم جزيرة العرب كلها وقاد كل عظماء العرب وجذبهم إليه بالمحبة.

ولو كنت واحدًا من الرعايا الضعفاء، فاتخذ من حياة رسول الله ﷺ مثالًا لأنه عاش تحت حكم المشركين الظالمين في مكة.

ولو كنت فاتحًا منصورًا ومظفرًا، فاعتبر من حياة النبي ﷺ الذي سعى بشجاعة وتسليم لهزيمة العدو في بدر وحنين.

والعياذ بالله إذا تعرضت للهزيمة، فتذكر في ذلك الوقت النبي ﷺ المتوكل الذي طاف صابرًا شجاعًا بين أصحابه الذين سقطوا شهداء أو أصبحوا جرحى في غزوة أحد.

ولو كنت معلمًا، ففكر في النبي الذي علم الأوامر الإلهية وأفاضت بركات قلبه الرقيق والحساس على أصحاب الصفة في المسجد.

ولو كنت طالبًا، فتصور رسول الله ﷺ جالسًا بأدب وانتباه وشوق أمام جبريل الأمين عليه السلام الذي جاءه بالوحي.



ولو كنت واعظًا ينصح الناس ومرشدًا أمينًا، فأصغ بأُذن صاغية للنبي ﷺ، وأعط سمعك وقلبك لصوته العذب وهو ينشر الحكم وهو يتحدث مع أصحابه في المسجد النبوي.

ولو كنت مدافعًا عن الحق مبلغًا له متمسكًا به، ولم تجد النصير الذي يعينك على هذا، فانظر إلى حياة النبي ﷺ الذي جهر بالحق أمام الظالمين ودعاهم إلى الهدى في مكة وهو محروم من أية مساعدة.

ولو كنت تسعى لهزيمة العدو وأن تقصم ظهره وأن تقهر عناده وتتفوق عليه، ولو أردت أن تمزق الباطل وتعلن الحق، فضع نصب عينيك رسول الله ﷺ الذي كان قائدًا مظفرًا يوم فتح مكة ومع ذلك كان شاكرًا حيث دخل إلى البلد الحرام على ظهر ناقته بتواضع كبير وكأنه في حالة السجدة.

ولو كنت شخصًا صاحب زراعة وأردت أن تنظم أعمالك فيها، فاتخذ النموذج من رسول الله ﷺ الذي وضع على رأس العمل أشخاصًا أداروه على أكمل وجه بعد أن ملك أراضي بني النضير وخيبر وفدك.

ولو كنت وحيدًا غريبًا بلا نصير، ففكر في ذلك اليتيم النوراني الذي كان قرة عين عبد الله وآمنة.



ولو كنت شابًا يافعًا، فانتبه لحياة الشاب الذي سيصير رسولًا والذي كان يرعى الأغنام لعمه أبي طالب في مكة.

ولو كنت تاجرًا، فلاحظ أحوال الشخص الذي خرج مع قوافل التجارة حيث كان أعلاهم قدرًا وقيمةً والقافلة تسير إلى الشام واليمن.

ولو كنت حاكمًا وقاضيًا، ففكر في السلوك العادل والذكي للنبي ﷺ عندما دخل على عظماء مكة وقد كادوا يتشاجرون ويتقاتلون فوضع الحجر الأسود في مكانه بالكعبة. وهذا يدل على الفراسة العظيمة للرسول ﷺ.

ومرة أخرى حوّل نظرك إلى التاريخ وانظر مرة أخرى إلى النبي ﷺ الذي جلس في المسجد النبوي في المدينة يصدر الأحكام في أعدل صورة بين البشر مساويًا بين الفقير المعسر والغني صاحب الحظوة.

ولو كنت زوجًا فانتبه إلى هديه الطاهر المبارك وإحساسه العميق ورحمته عندما كان زوجًا للسيدة خديجة والسيدة عائشة رضي الله عنها.

ولو كنت أبا لولد فتعلّمْ أحواله وسلوكه حيث كان والدًا لفاطمة الزهراء رضي الله عنها وجدّاً للحسن والحسين رضي الله عنهما.



وأيّاً ما كانت صفتك، وأيّاً ما كانت أحوالك، فستجد دائمًا في سيدنا رسول الله ﷺ أكمل مرشد لك، وأجمل هاد لنفسك.

وهو مرشد لك لأنك تصحح كل خطأ ارتكبته عليه فتنظم أعمالك التي حادت عن الصواب، وتصلح الأمور كلها متبعًا لسننه الشريفة. وفي ظل نوره وإرشاده سوف تتخلص من عوائق الحياة وموانعها وسوف تجد السعادة الحقيقية.

حقاً إن عالمه الوجداني القلبي ﷺ كان حديقة غناء مثل حدائق جنة تزينت بالأزهار الندية الرائعة والورود ذات رائحة المسك.

وكما رأينا فإن حياة النبي ﷺ هي أكمل نموذج لأفراد المجتمع الذين يتراوحون بين حياة العز والهوان. فمثلاً حياة المحكوم لا تشكل نموذجًا لحياة الحاكم، وحياة الحاكم لا تشكل نموذجًا لحياة المحكوم.

كما أن حال الفقير الذي أمضى عمره كله في صراع لتوفير لقمة العيش وهو يعاني الحرمان، لا يمكن أن يكون نموذجًا لغني يسبح في الترف.



أما حياة النبي ﷺ فهي تقدم نموذجاً لكلا الطرفين؛ لأن الحق ﷻ جعل النبي ﷺ يبدأ من **"اليتم"** الذي يمثل الذروة في العجز داخل المجتمع الإنساني، ثم جعله يترقى ويرتفع مرورًا بدرجات الحياة كلها حتى وصل إلى أعلى نقطة من ناحية القدرة والصلاحية، ألا وهي رئاسة الدولة والنبوة. فمراحل حياة النبي ﷺ تقدم كثيرا من السلوكيات المثالية لجميع تجليات المد والجزر في حياة الإنسان. ولهذا السبب فإن حياته ﷺ -مهما كانت درجة الفرد ومكانته في الحياة- تشكل نموذجًا فعليًا كاملًا يمكن للبشر كلهم أن يقلدوه كل على حسب قدرته واستطاعته.

والحاصل أنه ﷺ كان أكبر معجزة إلٰهية تفضل به الحق ﷻ على الإنسانية وكان أجمل نموذج مثالي لكل مسلك ومشرب من أدنى درجات المجتمع إلى أعلى درجاته. وكان ﷺ أكمل ميزان فعلي للمؤمنين الذين يتعمقون في شخصيته النموذجية المتميزة.

إن الذين ادعوا أن بإمكانهم إظهار طريق الخلاص للإنسانية وأنهم يمثلون نموذجا لبقية البشر -وبخاصة الفلاسفة الذين تصدوا لإيضاح كل شيء بعقولهم القاصرة



ومداركهم العاجزة- هم قاصرون دائما في هذا الشأن، إلا الأنبياء والرسل ومن سار على خطاهم من الصالحين. ولأن الأنبياء يستندون على الوحي الإلهي، فقد جاؤوا كمرشدين للهداية الإلهية التي تصدقهم جميعًا فكلهم يتلقون ويبلغون الأحكام الإلهية التي جاءت من الله تعالى. وهم كانوا يقولون دائمًا **"هكذا يأمر الله ﷻ"**. وعلى ذلك فإن الفلاسفة رغم أنهم يهدفون لأن يكونوا مرشدين للناس في طريق الحقيقة، فإنهم نظرا لحرمانهم من التأييد الإلهي، وتفكيرهم بعقولهم القاصرة الخاضعة لسلطة نفوسهم؛ فإنهم يعطون أحكامهم طبقًا لرأيهم ويقول الواحد منهم دائمًا: **"هكذا أرى أو حسب ما أرى"** ونتيجة هذا الخلاف نرى بعضهم يبطل نظرية الآخر وبعضهم يكذب البعض، ولهذا السبب فلا هم أرشدوا أنفسهم ولا هم أرشدوا مجتمعاتهم.

فأرسطو مثلًا مع أنه وضع أساس مجموعة من قوانين فلسفة الأخلاق وقواعدها، إلا أنه كان محرومًا من الوحي؛ لذا لم يستطع أن يجد شخصًا واحدًا يؤمن بفلسفته، أو حصل على السعادة بتطبيق تلك الفلسفة. وسبب ذلك أن الفلاسفة لم يُصفّوا قلوبهم ولم يزكوا أنفسهم، ولم تستطع أفكارهم وأفعالهم أن تنضج وتكتمل بمساعدة الوحي. وبالتأكيد



فإن الوسيلة الوحيدة التي يمكنها أن تُخلّص بني الإنسان من المصائب التي تجلبها الملكات الذهنية والميول القلبية -التي لم تتهذب ولم تترب بالوحي- هي القرآن الكريم. فالقرآن هو الحبل المتين الذي وهبه **الله** تعالى للبشرية مع نبي آخر الزمان ﷺ. والواقع أن أكثر النماذج الفعلية والعملية للحقائق التي في القرآن موجودة في السيرة الغنية لسيدنا محمد ﷺ. وفي تلك الحال فإن أكثر الأعمال ضرورة لبني الإنسان المكلفين بتحقيق الغاية من خلقهم هي الاستقامة والتحرك بصدق مع القرآن المجيد والسنة المطهرة.

وقد ترك لنا ﷺ المصدرين الكبرين كمرشدين وهما القرآن والسنة؛ لأن القرآن الكريم والسنة النبوية هما الوصفة الطبيةلسعادة الدنيا والآخرة وهما الذكرى الأبدية لـ**"نور الوجود"** ﷺ.

ومن ناحية أخرى فإن سيدنا محمد ﷺ قد حبب نفسه لقومه قبل نزول الرسالة عليه. فقد أجبر الناس على أن يسموه الصادق الأمين قائلين: **"أنت الأمين وأنت الصادق"**. وقد بدأ الرسول ﷺ في تبليغ دعوته بعد أن تأكد هذا الأمر في شخصه الشريف.



وقد عرف الناس طبعه الجميل وحسن خلقه واستقامته وصدقه حتى قبل النبوة وقد أحبوه لذلك. ولقبه قومه بـ"الأمين" فاستلموا لقراره وحكمه دون اعتراض عندما اختلفوا في وضع الحجر الأسود في مكانه وهم يعيدون بناء جدران الكعبة.

ومن الشواهد على صدق النبي ﷺ أن هرقل إمبراطور الروم سأل أبا سفيان الذي كان من أكبر أعداء النبي ﷺ حينئذ، ولم يكن قد آمن بعد، فقال: "**هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟**" فلم يجد أبو سفيان شيئًا آخر إلا أن يقول: "**لا**" قَالَ: "**فَهَلْ يَغْدِرُ؟**" قُلْتُ: "**لَا وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ.**"[6]

إن أهل مكة يصدقونه في كل ما يقول، لأنهم لم يعهدوا منه إلا الأمان.

وذات يوم أيضًا قال أبو جهل وأصحابه للنبي ﷺ وكانوا من أشرس أعدائه:

---

٦. البخاري، بدء الوحي، ٦، الصلاة، ١، الصدقات، ٢٨؛ مسلم، الجهاد، ٧٤.

"يا محمد إنا والله ما نكذبك وإنك عندنا الصادق ولكن نكذّب ما جئت به"

فنزلت في تلك الحادثة الآية الكريمة التي تقول:

«قَدْ نَعْلَمُ اِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذي يَقُولُونَ فَاِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلٰكِنَّ الظَّالِمينَ بِاٰيَاتِ اللّٰهِ يَجْحَدُونَ» (الأنعام، ٣٣)[٧]

ومن الحوادث التي تلقي الضوء على الأسباب التي جعلت الناس حتى المشركين يلقبونه ﷺ بـ**"محمد الأمين"** ما ذكرته كتب السيرة: أن أحد الرعاة اليهود أثناء غزوة خيبر جاء إلى الرسول ﷺ وتحدث معه، وطلب أن يدخل الإسلام وأن ينضم للمسلمين، فأمره الرسول ﷺ أن يعيد قطعان الغنم إلى أصحابها، ثم يعود ويلحق بهم[٨] مع أن الحرب قد طالت، وظهر بين المسلمين أزمة غذاء. فهذا الأمر النبوي مثال ذو

---

٧. الواحدي، أسباب النزول، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، بيروت، ١٩٩٠م، ص. ٢١٩.

٨. ابن هشام، السيرة النبوية، بيروت، دار الفكر، ١٩٣٧م، جـ. ٣، ٣٩٧-٣٩٨.

معنى يظهر الشعور بالمسؤولية وأهميةَ مراعاة الأمانة ولو في أصعب الأوقات.

ونستطيع الاستفادة الحقيقية من أخلاق النبي ﷺ وحاله العظيمة تلك إذا أخذنا درسًا من حادثة الإسراء والمعراج حيث وصل حال التسليم والتصديق بأبي بكر الصديق رضي الله عنه الذي قال مقولته الخالدة:

"إن كان قد قال فقد صدق"

والواقع أن مظاهر العدالة والرحمة والشفقة في حياته ﷺ و التي لا يمكن أن تُحصى، تمثل نموذجًا للدنيا كلها إلى يوم القيامة.

وأية عين منصفة تشاهد نوره البرّاق الذي سطع على العالم من مشكاته الفريدة لا يمكنها أن تنكر حقيقته ﷺ ولو وجدانيا على أقل تقدير.

ومثلما رأينا فإن كثيرًا من أرباب العلم الأجانب أصحاب العقول السليمة قد صدقوا وجدانيًا بعظمة سيدنا رسول **الله** ﷺ ونجاحه. فقد تحدث عنه **توماس كارليل** فقال:

"لقد كان ظهوره انسلاخًا للنور من الظلمة"



وكتبت **دائرة المعارف البريطانية** عن فضل النبي ﷺ تقول:

"إن ما وصل إليه محمد ﷺ لا يمكن أن يناله نبي، ولا مصلح، ولا رجل دين طوال تاريخ الإنسانية"

وقال **ب. سميث:**

"إن محمدًا ﷺ هو أكبر المصلحين بلا قيد ولا شرط وباتفاق الجميع"

وقد اعترف بتلك الحقيقة الكاتب **ستانلي لين بول** فقال:

"إن اليوم الذي استطاع فيه محمد أن يحقق أكبر انتصار له على الأعداء وفي نفس الوقت حقق فيه أكبر انتصار لأكبر الفضائل على نفسه. حيث إنه أطلق سراح الجميع وعفا عن قريش دون أي مقابل وشمل ذلك أهل مكة جميعهم في ذلك اليوم"

وقال الكاتب **آرثر جيلمان** أيضًا:

"لقد شاهدنا علو قدره في فتح مكة حيث لم يتأثر بما قاموا به تجاهه في الماضي وكان يمكن أن يدفعه ذلك لأن



ينتقم منهم شر انتقام ولكن محمدًا ﷺ منع جيشه من سفك أي نوع من الدماء وأظهر رحمة كبيرة وشكر الله ﷻ على ذلك وحمده"

والفيلسوف أيضًا **لو فيت** والذي كان واحدًا من واضعي الأسس الفكرية للثورة الفرنسية عام ١٧٨٩م قبل إعلان حقوق الإنسان، عندما كان يدرس النظم القانونية كلها حيث رأى تفوق القانون الإسلامي صرخ قائلًا:

"كم كنت عظيم القدر والشأن يا محمد! لقد وصلت إلى القمة في العدالة حيث لم يستطع أحد أن يصل إليها حتى اليوم ولا يمكن لأحد أن يصل إليها بعد ذلك"[٩]

هذه هي الفضيلة الحقيقية التي يسلم بها العدو ويضطر للاعتراف بها وتصديقها. فالذين لا يؤمنون بالنبي ﷺ اعترفوا دائما بفضله وفراسته وفطانته. لأن السيرة الاستثنائية للنبي ﷺ أجابت عن كل أمر من الأمور المختلفة وجمعت في داخلها التكامل الأخلاقي، وهذا قد نثر النور في طريق الباحثين عن

٩. كامل ميراث، ترجمة التجريد الصريح، أنقرة، ١٩٧٢، جـ. ٩، ٢٨٩.



النور. وهذا ما شكل نقطة الأساس لتعليم البشر كلهم على وجه الأرض.

وهديه ﷺ كان نورًا لا يخفت، أضاء الطريق الصحيح لكل من يبحث عنه. وكان المرشد الذي لا مثيل له للبشر كلهم.

إن حلقات الدروس والإرشاد الخاصة بالرسول ﷺ كانت جامعة جمعت الطوائف من طبقات الإنسانية كلها، وقد انصهرت فيها الطوائف كلها وتوحدت رغم اختلاف اللغات والثقافات والألوان والفروق الطبقية والوضع الاجتماعي.

ولم يكن هناك أي قيد أو شرط يمنع أي إنسان من الدخول فيها. فلم يكن ذلك المجلس قاصرًا على قوم بعينهم بل كان مركزًا علميًا وعرفانيًا يهتم بالإنسان من حيث كونه إنسانًا فقط، وكان فيها القوي مع الضعيف لا فرق بينهما.

وانظروا نظرة إلى من اتبع سيدنا محمدا ﷺ فسوف ترون أشخاصًا من علية القوم مثل النجاشي ملك الحبشة، وذي الكيلة رئيس حمير، وفيروز الديلمي، وفروة عظيم معن، وعبيد بن جعفر من ولاة عمان ومركبود من عظماء اليمن.



ولو ألقيت النظر مرة أخرى لرأيت إلى جانب هؤلاء العظماء يجلس بلال، وياسر، وصهيب، وخباب، وعمار من عوام الناس، ولوجدت بينهم جواري وأرامل مثل سمية، ولبينة، وزِنِّيرَة، والنهدية، وأم عُبَيس.

وكما كان يوجد بين أصحاب النبي العظيم ﷺ أصحاب النُهى والرأي الثاقب والعقل الواسع، كان يوجد أيضًا أشخاص يصلحون لأدق الأعمال عارفين بأسرار الدنيا يستطيعون إدارة الدول بكل الدراية واللياقة.

لقد خرج من أتباع النبي ﷺ من حكم المدن وحكم الولايات. وقد نشر هؤلاء بين الناس السلامة والسكينة والتحموا بهم كأنهم إخوة لهم. وعرفت البشرية السعادة في ظلهم، وذاقت طعم العدالة في حكمهم.





القسم الثاني

- أخلاق رسول الله ﷺ العالية
- مقاييس عالية تُطاول النجوم

أخلاق رسول الله ﷺ العالية

إذا ألقينا نظرة على تاريخ البشرية فلن نجد شخصا قد دُرست وبحثت وغطّيت حياته بجميع جوانبها بالاهتمام والعناية والتمحيص كما أُخذت حياة الرسول ﷺ بالدراسة والبحث والتسجيل. ولو حاولنا ذكر الخصائص كلها التي كوّنت الشخصية القدوة لرسول الله ﷺ فلن تكفي المجلدات لذكرها.

والواقع أن العلوم الإسلامية في الأساس[١٠] كانت تتخذ من شخصية النبي ﷺ في جوانبها المتنوعة دليلاً. كما كانت تفعل نفس الشيء عند الاجتهاد.[١١] ولهذه الأسباب فقد

---

١٠. هذا الأصل الذي تعتمد عليه العلوم الإسلامية هي القرآن والسنة التي تكون تفسير وتأويل الوحي. والسنة هي كل قول أو فعل أو تقرير أو حال أو سلوك أتى به رسول الله ﷺ. ولا اجتهاد في أي أمر نص عليه القرآن والسنة بوضوح.

١١. الاجتهاد: هو استنباط الأحكام في المسائل التي ليس فيها أحكام قاطعة في القرآن والسنة.ولكن هذا الأمر يتم في ضوء الأحكام العامة للقرآن والسنة بحسب الأصول المعروفة للمجتهدين.



بذلت فروع العلم المتنوعة كلها جهدا في تناول جوانب النبي ﷺ ودراستها جميعًا.

وقد سعت وساهمت المؤلفات الإسلامية كلها التي أُلفت منذ تاريخ يزيد عن ألف وأربعمائة عام إلى بيان الكتاب وهو القرآن الكريم وإلى بيان الإنسان وهو سيدنا رسول **الله** ﷺ.

وليس من الممكن أن نفهم بقدراتنا واستعدادنا البشري القاصر فخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ الذي كان معجزة الخلق فهما كاملًا. فمثلًا لا يمكن إدراك **"النور المحمدي"** كما يجب؛ لأن الانطباعات التي تؤخذ من عالمنا البشري تبقى غير كافية لإدراكه وفهمه ﷺ.

ونحن هنا سنجتهد في التعريف بالشخصية النموذج لرسول **الله** ﷺ بأن نعرض –على قدر إدراكنا فقط– عددًا من الأمثال التي تشكل بحرًا زاخرًا.

جمال وجه رسول الله ﷺ وخَلقه وأخلاقه

إن رسول **الله** ﷺ هو وجود مبارك لم يخلق مثله، فقد كان جميل الصورة كامل السيرة والهدي. ولا يمكن أن نعبر بما يليق عن كامل صورته وسيرته ﷺ.

وفي ذلك يقول الإمام القرطبي:



"إن حسن جمال رسول الله ﷺ لم يظهر كاملًا، لأنه لو ظهر على حقيقته التي احتوت الجمال كله ما استطاع أصحابه أن يجدوا في أنفسهم الطاقة لينظروا إليه"[١٢]

لقد استطاع قليل جدًا من أصحابه رضي الله عنهم -بسبب أدبهم- أن يشاهدوا نور جماله ﷺ حتى يرتووا ويشبعوا، ورسول الله ﷺ بينهم ومعهم على الدوام. حتى إنه يُروى أن النبي ﷺ عندما كَانَ يَخْرُجُ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَهُمْ جُلُوسٌ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رضي الله عنهما فَلاَ يَرْفَعُ إِلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ بَصَرَهُ إِلاَّ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَإِنَّهُمَا كَانَا يَنْظُرَانِ إِلَيْهِ وَيَنْظُرُ إِلَيْهِمَا وَيَتَبَسَّمَانِ إِلَيْهِ وَيَتَبَسَّمُ إِلَيْهِمَا. (الترمذي، المناقب، ٣٦٦٨/١٦)

وقد ذكر عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر هذا الموقف في أواخر عمره فقال:

"وما كان أحد أحبَّ إليّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه. وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالًا له. ولو سئلت أن أصفه ما أطقت". (مسلم، الإيمان، ١٩٢؛ أحمد، ٤، ١٩٩)

---

١٢. علي ياردم، شمائل رسولنا ﷺ، استانبول، ١٩٩٢، جـ. ٤، ١٩٩.



وكان وجه النبي ﷺ المبارك الذي يشيع السكينة والطمأنينة فيمن حوله جميعًا أجمل الوجوه وأطهرها.

حتى إن الصحابي عبد **الله** بن سلام رضي الله عنه الذي كان أحد علماء اليهود قبل أن يسلم عندما رأى وجه النبي ﷺ المبارك حينما وصل إلى المدينة المنورة دار الهجرة قال:

"إن هذا الوجه ليس بوجه كذاب" (الترمذي، القيامة، ٤٢/ ٢٤٨٥؛ ابن ماجه، الأطعمة، ١؛ أحمد، ٥/٤٥١)

وإن جمال النبي وهيبته وإضاءته ونوره وحسنه ﷺ كان على قدر ودرجة كبيرة حيث لم يكن يحتاج ﷺ إلى أيّ برهان أو معجزة أو دليل على أنه رسول **الله** ﷺ.

وكان وجه رسول **الله** ﷺ يتغير في الحال عندما لا يرغب في شيء ما، وعندما كان يستحسن شيئًا ما كان الرضا يظهر على وجهه.

كان يجمع في جسمه اللطيف الحيويةَ والحياء والعزم والهمة العالية. أما عمق رقة قلبه فلا سبيل لوصفه.



وكان نور الحُسن يوجد في وجهه، والسلاسة والتدفق في كلامه، والذوق في حركاته والطلاقة في لسانه، والفصاحة في حديثه، والبلاغة الخارقة في بيانه.

ولم يكن ﷺ يتحدث في فضول الكلام، بل كان كلامه كله الحكمة والنصيحة. ولم يكن قاموسه يعرف القيل والقال وما لا معنى له من الكلام أبدًا. وكان يتحدث بالكلمة بحسب فهم كل فرد وإدراكه.

كان ﷺ متواضعًا ولَيِّنًا، ولم يكن ضحكه قهقهة، بل كان جُل ضحكه تبسمًا. وكان من يراه ﷺ فجأة يتغير وجهه خشية منه. ومن يصاحبه ويتآلف معه يعشقه ويحبه من روحه وقلبه معا.

وكان يحترم أرباب الفضائل كلا بحسب درجته. وكان يكرم أقاربه أكثر من غيرهم. ومثلما كان يحسن معاملة أهل بيته وأصحابه، فإنه كان يعامل بلطف ورفق بقية البشر كلهم.

وكان يكرم غاية الإكرام خدمه فيلبسهم مما يلبس ويطعمهم مما يأكل. وكما أنه كان كريمًا وصاحب فضل

ورحيمًا وشفوقًا، فإنه كان جسورًا وشجاعًا عند الضرورة حليمًا إذا اقتضى الأمر ذلك.

ومن المستحيل أن نقدر كرمه وعطاءه بالدرجة التي تليق به. فقد كان رسول الله ﷺ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر. وقد وضح سيدنا جابر رضي الله عنه هذا الأمر فقال:

"ما سُئل رسول الله ﷺ شيئًا قط فقال: لا" (مسلم، الفضائل، ٥٦)

لقد كان ﷺ صاحب أجمل أدب وخلق يزور أقاربه كثيرًا، ويظهر أقصى الرحمة والشفقة بالخلق، ويعامل الناس أحسن معاملة، ويتجنب الأخلاق السيئة دائمًا. يقول ﷺ:

"مَا شَيْءٌ أَثْقَلَ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللهَ لَيَبْغُضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ" (الترمذي، البر، ٦٢/٢٠٠٢)

وكان رسول الله ﷺ صادقًا في وعده وعهده وكلمته. وكان ﷺ أكثر الناس ذكاءً وكانت شمائله كلها تليق بالمدح والثناء. وكان ﷺ دائم الحزن متواصل التفكير. وكان يطيل الصمت وإذا تكلم كان يتم الكلام. وكان يجمع المعاني الكثيرة في بضع كلمات قليلة، أي أنه أوتي جوامع الكلم، وكانت كلماته تعد، وكان يترك فضول الكلام قليله وكثيره.



وكان رقيقًا بطبعه رغم هيبته وصلابته. وكان لا يغضب إلا إذا انتُهك الحق ولم يذعن الناس للحق. وإذا انتُهك حق كان يغضب ويستمر غضبه حتى يعيد الحق إلى مكانه. وبعد أن يحق الحق كانت تغمره السكينة. ولم يكن ﷺ يغضب لنفسه قط، ولم يكن يدافع عن نفسه في أي أمر يتعلق بشخصه الشريف، ولم يدخل في نقاش وجدال مع أي شخص.

ولم يكن ﷺ يدخل بيتًا حتى يؤذن له. وعندما كان يدخل إلى بيته الشريف كان يقسم مدة بقائه في بيته إلى ثلاثة أقسام: الأول لعبادة الله تعالى، والوقت الثاني لعائلته، والوقت الثالث لنفسه. وكان يخصص الوقت الذي قسمه لنفسه، للناس جميعًا: العوام، والخواص. وكان لا يحرم أي شخص منهم، وكان يفتح قلبه للناس كلهم.

وكان يجلس في جميع أنحاء المسجد حتى يمنع عادة الجلوس في مكان محدد. لأنه لم يكن يرغب في إضافة القدسية للأماكن والمقامات. ولم يكن يحب أن يتخذ وضعًا معلومًا في المساجد حتى لا تكون سببًا للكبر والتكبر. وعندما كان يدخل إلى أحد المجالس أيما مكان وجده خاليًا جلس فيه، وكان يطلب من كل فرد أن يفعل مثله.

وإذا طلب منه شخص قضاء حاجة لم يكن يهدأ حتى يوفرها له مهمة كانت أو غير مهمة، عظيمة كانت أو بسيطة. وإذا لم يستطع قضاء تلك الحاجة لم يكن يرجعه خالي اليد، بل يطيب خاطره وقلبه بكلمة طيبة. وكان ﷺ يشارك الناس آلامهم. وكان الناس عنده جميعًا سواء أيما كانت مواقعهم ومكانتهم، غنيهم وفقيرهم، عالمهم وجاهلهم. وكانت مجالسه ﷺ هي مكان لتطبيق الفضائل مثل: الحلم، والعلم، والحياء، والصبر، والتوكل، والأمانة.

ولم يكن ﷺ يلعن أي شخص بسبب عيوبه ونقائصه. بل عندما يجد شخصًا يحتاج لمن ينبهه ويعلمه؛ كان يعلمه بالإيماء وبشكل جميل دون أن يؤذيه. كما أنه لم يكن يُشغل بالعيوب والنقائص التي يخفيها أحد الأشخاص فإنه ﷺ كان يمنع بشدة أيضًا أن يقتفي أحد هذه الأحوال.

ولم يكن فخر الكائنات ﷺ يتحدث إلا فيما يجلب الثواب. وكانت مجالس صحبته تغمرها المحبة فإنه عندما يتحدث كان من يتحلق حوله يستمع إليه بآذان صاغية كأنه مسحور. وكان الأدب والسكينة تلف من هم في صحبة الرسول ﷺ وكان هذا حالهم. وكانوا يعبرون عن تلك الحال:



"كأنما على رؤوسنا الطير" (أبو داود، السنة، ٢٣-٢٤/٤٧٥٣)

وقد انعكس أدب رسول الله ﷺ وحياءه على أصحابه حتى إنهم كانوا يلاقون صعوبة كبيرة ولا يجدون الجرأة كي يوجهوا للرسول سؤالا. ومن أجل هذا كانوا يتحينون الفرصة لِيأتي إليهم أعرابي من الصحراء حتى يسأل النبي ﷺ ويستفيدوا من فيض الرسول ﷺ وروحانيته التي تَشِعُّ على المجلس.

وقد كان رسول الله ﷺ نموذجًا ومثالًا حيًا ورمزًا للإخلاص الحميم طوال حياته. ولم يقل شيئًا لم يكن في قلبه. وكانت أخلاقه وعاداته قرآنًا حيًا. ولم يكن يأمر غيره بعمل لم يعمله بنفسه[١٣]

تواضع رسول الله ﷺ

على الرغم من أن رسول الله ﷺ قد وصل في مدة قصيرة إلى ملك واسع لم يستطع أي ملك أن يبلغه في الدنيا، وحاز على قلوب الجميع كمعلم ومربٍّ مثالي للبشرية جمعاء، فإنه لم يلتفت إلى أيٍّ من نعم الدنيا التي ارتمت تحت قدميه،

١٣. انظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، جـ. ١، ١٢١، ٣٦٥، ٤٢٢-٤٢٥.



وبقي محافظا على تواضعه السابق. وظل كما كان في السابق يعيش في غرفة فقيرة الحال وبسيطة ومتواضعة صنعت من اللَّبِن. وكان ينام على فراش حشوه الليف. وكان يرتدي الملابس البسيطة. وفي بعض الأحيان عندما لم يكن يجد شيئًا يأكله كان يشكر ربه ويربط الحجر على بطنه الشريف من الجوع. ورغم أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإنه كان دائم الشكر والتوسل. وكان يقيم الليل حتى تتورم قدماه.

وكان يصل الفقير ويواسي اليتيم ومن لا أنيس له. ورغم عظمته ﷺ، فإنه كان مشغولًا بأكثر الناس عجزًا وفقرًا ويبسط جناح الشفقة والرحمة عليهم.

ويوم فتح مكة عندما رأى الناس أكبر قوة عرفوها، وضرب الخوف والرعب قلوبهم واصطكت أسنانهم من الرعب جاءه أحدهم تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ وقال يا رسول الله ﷺ علمني الإسلام فأخذ رسول الله ﷺ يعلمه الإسلام مذكرًا هذا المكي بحاله ﷺ عندما كان ضعيفًا في مكة قبل فترة من الزمان وَقَالَ لَهُ:



"هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ" [١٤]

وبهذه الكلمات وصل رسول الله ﷺ إلى ذروة التواضع التي لا يمكن لعظيم أن يصل حتى إلى أدنى درجة منها.

وفي نفس اليوم أظهر الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق حبيبه ورفيق الغار جوابًا رقيقًا لأنه دخل المسجد بأبيه يقوده فلما رآه رسول الله ﷺ قال له:

"هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه!" [١٥]

وكان رسول الله ﷺ يعرّف نفسه دائمًا بأنه العاجز أبدا قائلًا عن نفسه:

«قُلْ اِنَّمَا اَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ» (الكهف، ١١٠)

١٤. انظر: ابن ماجه، الأطعمة، ٣٠؛ الطبراني، المعجم الأوسط، جـ ٢، ٦٤.

١٥. انظر: احمد، جـ ٦/ ٣٤٩؛ الهيثمي، جـ ٦/ ١٦٤؛ ابن سعد، جـ ٥، ٤٥١.



وكان ﷺ يحافظ على أمته من أن تسقط في الضلال مثل الأمم السابقة فيضيف بإصرار كلمة **"عبد الله"** على رأس جملة **التصديق برسالته.**

وقد نبه على من أظهر له تعظيمًا زائدًا عن الحد قائلا:

"لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله" (الهيثمي ٩/ ٢١)

كَانَ لِلنَّبِيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لَهَا الْغَرَّاءُ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رِجَالٍ فَلَمَّا أَضْحَوْا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بِتِلْكَ الْقَصْعَةِ يَعْنِي وَقَدْ ثُرِدَ فِيهَا فَالْتَفُّوا عَلَيْهَا فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رَسُولُ اللَّه ﷺ فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:

"مَا هَذِهِ الْجِلْسَةُ؟!" قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"إِنَّ اللَّه جَعَلَنِي عَبْدًا كَرِيمًا وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا عَنِيدًا"

ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: **"كُلُوا مِنْ حَوَالَيْهَا وَدَعُوا ذِرْوَتَهَا يُبَارَكْ فِيهَا"** (أبو داود، الأطعمة، ١٧/ ٣٧٧٣)

نخلص من ذلك إلى أنه لم يتصرف ﷺ أبدًا مثل البشر المتكبرين والمغرورين.

ومرة أخرى يوضح هذا الأمر قائلًا:

"سددوا وقاربوا وأبشروا فإنه لا يُدخل أحدًا الجنة عملُه" وقد تحير الصحابة الكرام ﷺ فسألوه **"ولا أنت يا رسول الله"** فرد عليهم قائلًا:

"ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة" (البخاري، الرقاق ١٨، مسلم، المنافقين ٧١، ٧٢، ابن ماجة، الزهد ٢٠، الدرامى، الرقاق ٢٤)

ومرة أخرى ينبه رسول الله ﷺ أمته إلى أن من لبس ثوبه على هيئة من الكبر والغرور والعُجب ألبسه الله ثوب الوضاعة يوم القيامة. وبهذا الخصوص يقول ﷺ:

"لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرًا" (البخاري، اللباس ١، ٥)

وقال أيضا: **"من لبس ثوب شهرة في الدنيا، ألبسه الله تعالى ثوب مذلة يوم القيامة ثم ألهب فيه نارًا"** (ابن ماجة، اللباس ٢٤)

وأيضًا كان رسول الله ﷺ يوزع حتى الغنائم التي من نصيبه. وكان يعيش حياة متواضعة من الناحية المادية كأقل فرد في أمته.



كرم رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ يصف نفسه بأنه مأمور بالإنفاق وكان يقول: إن الله تعالى هو المعطي وهو المالك.

وقد شهد صفوان بن أمية مع رسول الله ﷺ حُنَيْناً والطائف قبل أن يسلم، وكان حينئذ أحد كبار المشركين، وبعد الغزو كان مع النبي ﷺ في الْجِعِرّانَةِ، فَبَيْنَا رَسُولُ اللّٰه ﷺ يَسِيرُ فِي الْغَنَائِمِ يَنْظُرُ إِلَيْهَا وَمَعَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيّةَ، جَعَلَ صَفْوَانُ يَنْظُرُ إِلَى شِعْبٍ مُلِئَ نَعَمًا وَشَاءً وَرِعَاءً فَأَدَامَ إِلَيْهِ النّظَرَ، وَرَسُولُ اللّٰه ﷺ يَرْمُقُهُ فَقَالَ:

"**أَبَا وَهْبٍ يُعْجِبُكَ هَذَا الشّعْبُ**" قَالَ: نَعَمْ، قَالَ:

"**هُوَ لَكَ وَمَا فِيهِ**" فَقَالَ صَفْوَانُ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا طَابَتْ نَفْسُ أَحَدٍ بِمِثْلِ هَذَا إلاّ نَفْسُ نَبِيٍّ. أَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إلاّ اللّٰه وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ.[١٦]

وعندما عاد إلى قبيلته قال:

١٦. الواقدي، المغازي، بيروت، ١٩٨٩، جـ. ٢، ص ٨٥٤-٨٥٥.



"يا قومي أسلموا فوالله إنَّ محمدًا ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر" (مسلم، الفضائل، ٥٧-٥٨؛ أحمد، ٣، ١٠٧)

ومرة أخرى جاء أحدهم إلى رسول الله ﷺ وطلب شيئًا ولم يجد رسول الله ﷺ شيئًا ليعطيه إياه، فما كان منه إلا أن استدان ليعطي هذا الشخص وتعهد بأن يؤدي هذا الدين.[١٧]

وكان مثل جده إبراهيم عليه السلام لا يترك ضيفه يتناول طعامه بمفرده. وكان يؤدي الدين عمن مات، أو يطالبهم بتأدية الدين. ولم يكن يصلي الجنازة على من لم يؤد دينه. وكان ﷺ له حديث شريف يقول فيه:

"السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ" (الترمذي، البر، ٤٠/١٩٦١)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

---

١٧. الهيثمي، ١٠/ ٢٤٢. انظر أيضًا: أبي داود، الخراج، ٣٣-٣٥/ ٢٠٥٥؛ وابن حبان، الصحيح، بيروت، ١٩٩٣م، جـ. ١٤، ٢٦٢-٢٦٤.



"خَصْلَتَانِ لاَ تَجْتَمِعَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ"

(الترمذي، البر، ١٩٦٢/٤١)

تقوى رسول الله ﷺ

كان ﷺ أكثر الناس تقوى. وقد طلب من الحق ﷻ أن يمنحه التقوى وفي ذلك يقول:

"اللّٰهم! آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها. أنت وليها ومولاها" (مسلم، الذكر، ٧٣)

ويقول أيضًا:

"اللّٰهم! إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى"

(مسلم، الذكر، ٧٢)

وبسبب تقواه عاش كالفقراء. وفي ذلك تقول السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها:

"مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ بُرٍّ مَأْدُومٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى لَحِقَ بِاللّٰه" (البخاري، الأيمان، ٢٢؛ مسلم، الزهد، ٢٠-٢٢؛ ابن ماجه، الأطعمة، ٨٤)



وكان رسول الله ﷺ يشجع أمته على التقوى فيقول:

"إنَّ أَوْلى الناس بي المتَّقون من كانوا وحيثُ كانوا"

(أحمد، ٧، ٢٣٥؛ الهيتمي، ٩/٢٢)

ويقول: **"إِنَّمَا أَوْلِيَائِيَ الْمُتَّقُونَ"** (أبو داود، الفتن، ٤٢٤٢/١)

ويقول أيضًا:

"اتق الله حيثما كنت. وأتبع السيئة الحسنة تمحها. وخالق الناس بخلق حسن" (الترمذي، البر، ١٩٨٧/٥٥)

وقد وضح رسول الله ﷺ الطريق الذي يكسب التقوى الحقيقية فقال:

"لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَرًا لِمَا بِهِ الْبَأْسُ" (الترمذي، القيامة، ٢٤٥١/١٩؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٤)

حيث إن رسول الله ﷺ كان لا يفرّق بين الناس وكان ينظر للجميع بالتساوي ويقول:

"لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"

(أحمد، ٥/ ٤١١)



وهناك تعريف جميل للتقوى قاله سيدنا عيسى عليه السلام: **فقد** جاءه رجل وقال له:

"يا معلم الخير، علمني شيئا تَعْلَمُهُ وأَجْهَلُهُ، وينفعني ولا يضرك." قال: **"ما هو؟"** قال: "كيف يكون العبد تقياً لله عز وجل حقًا؟" قال: **"بيسير من الأمر؛ تحب الله حقاً من قلبك، وتعمل له بكدّك وقوتك ما استطعت، وترحم بني جنسك برحمتك نفسك"** قال: "يا معلم الخير، ومن بنو جنسي؟" قال: **"ولد آدم كلهم. وما لا تحب أن يُؤتى إليك، فلا تؤته إلى غيرك؛ فأنت تقي لله حقًا"**[18]

سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه **ذات** يوم أبي بن كعب رضي الله عنه:

"ما هي التقوى" قال أبي بن كعب رضي الله عنه:

"يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقًا ذا شوك؟" قال: **"بلى"**، قال:

"ماذا صنعت؟" قال:

"شمرت واجتهدت" قال:

١٨. أحمد، الزهد، بدون دار نشر بدون تاريخ، ص، ٥٩.

"فذلك التقوى"[19]

وكان أقرب الناس إلى قلب رسول اللّٰه ﷺ المتَّقين. عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه:

لَمَّا بَعَثَهُ رسول اللّٰه ﷺ إِلَى الْيَمَنِ خَرَجَ مَعَهُ رسول اللّٰه ﷺ يُوصِيهِ وَمُعَاذٌ رَاكِبٌ وَ رسول اللّٰه ﷺ يَمْشِي تَحْتَ رَاحِلَتِهِ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ:

"يَا مُعَاذُ إِنَّكَ عَسَى أَنْ لَا تَلْقَانِي بَعْدَ عَامِي هذَا أَوْ لَعَلَّكَ أَنْ تَمُرَّ بِمَسْجِدِي هَذَا أَوْ قَبْرِي" فَبَكَى مُعَاذٌ رضي الله عنه جَشَعًا لِفِرَاقِ رسول اللّٰه ﷺ ثُمَّ الْتَفَتَ فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ نَحْوَ الْمَدِينَةِ فَقَالَ:

"إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِي الْمُتَّقُونَ مَنْ كَانُوا وَحَيْثُ كَانُوا"[20]

---

١٩. انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، بيروت، ١٩٨٨م، جـ. ١، ٤٢.

٢٠. انظر: أحمد، جـ. ٥، ٢٣٥؛ الهيثمي، مجمع الزوائد، بيروت ١٩٨٨م، جـ. ٩، ٢٢.



زهد رسول الله ﷺ

لقد خضعت معظم الدول والأمم ودخلت تحت إدارة وسيادة سيدنا رسول **الله** ﷺ وهي راضية. وكان ﷺ يحكم جزيرة العرب كاملة. ورغم استطاعته أن يفعل أي شيء يرغب فيه، إلا أنه استمر في حياته البسيطة. وكان يقول: لا أملك أي شيء لنفسي. وأخبر أن كل شيء يكون بقدر **الله** وقدرته. ودار الزمان وجاءته الثروات الواسعة. وكانت قوافل الجمال المحملة بالخزائن تساق إلى المدينة المنورة. وكان ﷺ يوزّع كلها على أصحاب الحاجات وكان يستمر في حياة الزهد نفسها التي كان يعيشها وكان يقول:

"ما يسرني أن لي أُحُدًا ذهبًا، تأتي على ثلاث وعندي منه دينار إلا دينار أرصده لدين علي" (البخاري، التمني، ٢؛ مسلم، الزكاة، ٣١)

وكانت الأيام تمر ولم تكن توقد في بيت رسول **الله** ﷺ نار لطهي الطعام وكان ينام جائعًا مرات كثيرة. (أحمد، ٢١٧/٦؛ ابن سعد، ٤٠٥/١)

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللّٰه ﷺ وَهُوَ عَلَى سَرِيرٍ مُضْطَجِعٌ مُرْمَلٌ بِشَرِيطٍ وَتَحْتَ رَأْسِهِ وِسَادَةٌ مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ فَدَخَلَ عَلَيْهِ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَدَخَلَ عُمَرُ رضي الله عنه فَانْحَرَفَ رَسُولُ اللّٰه ﷺ انْحِرَافَةً فَلَمْ يَرَ عُمَرُ بَيْنَ جَنْبِهِ وَبَيْنَ الشَّرِيطِ ثَوْبًا وَقَدْ أَثَّرَ الشَّرِيطُ بِجَنْبِ رَسُولِ اللّٰه ﷺ فَبَكَى عُمَرُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

"مَا يُبْكِيكَ يَا عُمَرُ" قَالَ:

"وَاللّٰه إِلَّا أَنْ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّكَ أَكْرَمُ عَلَى اللّٰه عز وجل مِنْ كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَهُمَا يَعْبَثَانِ فِي الدُّنْيَا فِيمَا يَعْبَثَانِ فِيهِ وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللّٰه ﷺ بِالْمَكَانِ الَّذِي أَرَى" فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الْآخِرَةُ" قَالَ عُمَرُ "بَلَى" قَالَ **"فَإِنَّهُ كَذَاكَ"**[٢١]

---

٢١. أحمد، جـ. ٣، ١٣٩؛ الطبراني، الجامع الكبير، تحقيق، حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، جـ. ١٠، ١٦٢.

وقد شبه رسول الله ﷺ حاله مع الدنيا فقال:

"مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا! مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا"[٢٢]

هكذا كانت سيرته ﷺ!

وكان رسول الله ﷺ يخاف على نفسه من السؤال عن نعم الدنيا يوم الحساب، وكان يدعو:

"اللّهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة" (الترمذي، الزهد، ٣٧/٢٣٥٢؛ ابن ماجه، الزهد ٧)

على الرغم من أن جميع الأنبياء كانوا يعلمون أنهم بأمان من الله تعالى على أنهم سيدخلون الجنة إلا أنهم يعرفون أيضا بأنهم كجميع الناس ستوجه إليهم الأسئلة: هل بلغوا الرسالة كما يجب أن تُبَلَّغ وعن النعم التي أنعم الله عليهم هل قاموا بالحمد والشكر على ذلك. وفي ذلك يقول المولى عزّ وجلّ:

«فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ اُرْسِلَ اِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ»

(الأعراف، ٦)

---

٢٢. الترمذي، الزهد، ٤٤ / ٢٣٧٧؛ ابن ماجه، الزهد٣؛ أحمد، جـ. ١، ٣٠١.



والواقع أن ألفاظًا مثل الزهد والتقوى والإحسان هي ألفاظ مختلفة تفيد نفس المعنى تقريبًا. والغاية المشتركة لمثل هذه المفاهيم التي تشكل جوهر التربية الصوفية؛ هو الحد من رغبات النفس. وبذلك تتكشف الاستعدادات الروحية، ويصل الإنسان إلى "**حضور القلب وصفاء النفس**" وهذا عبارة عن قِوام "**القلب السليم**" الذي تتطلبه العبودية لله عز وجل. وهذا ما عبرت عنه الآية الكريمة:

«اِلَّا مَنْ اَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلٖيمٍ» (الشعراء، ٨٩)

رقة سيدنا رسول الله ﷺ

لقد كان رسول الله ﷺ صاحب قلب حساس رقيق للغاية فقد رأى ﷺ رجلًا ذات يوم يبصق على الأرض. فاحمرّ وجه النبي ﷺ. ووقف في مكانه ولم يتحرك. وهرع الصحابة رضي الله عنهم وغطوا تلك البصقة بالتراب، وبعد ذلك استمر رسول الله ﷺ في طريقه.

وكان رسول الله ﷺ يأمر بحسن الهيئة والهندام، ولم يرض أن تكون الملابس رثة وغير مهندمة. ولم يكن يحب أن تكون اللحية شعثاء غير مهذبة. فذات مرة كَانَ رَسُولُ اللّٰه



ﷺ فِي الْمَسْجِدِ فَدَخَلَ رَجُلٌ ثَائِرَ الرَّأْسِ وَاللِّحْيَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ أَن اخْرُجْ كَأَنَّهُ يَعْنِي إِصْلَاحَ شَعَرِ رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ فَفَعَلَ الرَّجُلُ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ:

"أَلَيْسَ هَذَا خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدُكُمْ ثَائِرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ شَيْطَانٌ"[23]

ومرة أخرى رأى رسول الله ﷺ رَجُلًا شَعِثًا قَدْ تَفَرَّق شَعْرُهُ فَقَالَ:

"أَمَا كَانَ يَجِدُ مَا يُسَكِّنُ بِهِ شَعْرَهُ". وَرَأَى رَجُلًا آخَرَ وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ وَسِخَةٌ فَقَالَ:

"أَمَا كَانَ هَذَا يَجِدُ مَاءً يَغْسِلُ بِهِ ثَوْبَهُ" (أبو داود، اللباس ٤٠٦٢/١٤؛ النسائي، الزينة، ٦٠)

---

٢٣. الموطأ، الشعر، ٧؛ البيهقي، شعب الإيمان، بيروت، ١٩٩٠م، جـ. ٥، ٢٢٥.

ومرة أخرى دخل عليه رجل فِي ثَوْبٍ دُونٍ فَقَالَ: **"أَلَكَ مَالٌ؟"** قَالَ نَعَمْ. قَالَ **"مِنْ أَيِّ الْمَالِ"**. قَالَ قَدْ أَتَانِيَ اللهُ مِنَ الإِبِلِ وَالْغَنَمِ وَالْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ. قَالَ:

"فَإِذَا آتَاكَ اللهُ مَالًا فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ". (أبو داود، اللباس، ٤٠٦٣/١٤؛ النسائي، الزينة ٥٤، أحمد، جـ. ٤/ ١٤٧)

وفي حادثة أخرى قال ﷺ:

"إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده" (الترمذي، الأدب ٥٤ / ٢٨١٩؛ أحمد، ١١، ٣١١)

لقد كانت شخصية سيد الخلق محمد ﷺ تشكل ذروة الرقة وحسن الطبع واللطف واللين.

ورغم أن شخصًا غليظ الطبع قد دخل عليه وخاطبه أكثر من مرة قائلًا:

"يا محمد، يا محمد"، إلا أن رسول الله خاطبه بلين ورفق وتلطف معه وقال له: **"ما شأنك؟"**[٢٤]

٢٤. مسلم، النذر، ٨؛ الترمذي، الزهد، ٥٠؛ أحمد جـ. ٤، ٢٣٩.



ومرة أخرى فإن رسول **الله** ﷺ بسبب رقته ولينه وحسن خلقه العالي كان يخدم ضيوفه ويكرمهم بنفسه (البيهقي، شعب، ٦/٥١٨، جـ ٧ / ٤٣٦)

وحتى في طفولته لم يدخل في نقاش أو جدال عقيم مع أي شخص. ولأنه كان صاحب رقة ولطف كبير، فإنه ﷺ قد ربّى أهل بيته بهذه الأخلاق العالية.

أما حال حفيد النبي ﷺ سيدنا الحسن رضي الله عنه فأكبر وأجمل مثال على ذلك:

"ورؤي الحسن بن علي رضي الله عنهما يطوف بالبيت، ثم صار إلى المقام فصلى ركعتين، ثم وضع خده على المقام فجعل يبكي ويقول:

«عبيدك ببابك، خويدمك ببابك، سائلك ببابك، مسيكينك ببابك» يردد ذلك مراراً ثم انصرف رضي الله عنه، فمر بمساكين معهم فلق خبز يأكلون، فسلم عليهم فدَعَوْهُ إلى الطعام، فجلس معهم وقال:

«لولا أنه صدقة لأكلت معكم» ثم قال رضي الله عنه:



«قوموا بنا إلى منزلي» فتوحهوا معه، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم"[25]

هذه الرقة وهذا اللطف والحنان هو أعظم مثال على تمثل المخلوق لنظرة الخالق الممتلئة بالرحمة والشفقة عند التعامل مع البشر.

ومثال آخر لسيدنا الحسن رضي الله عنه يوضح تلك الحال، فذات يوم كان الحسن رضي الله عنه مارا في بعض حيطان المدينة فرأى رجلا أسود بيده رغيف يأكل لقمة ويطعم الكلب أخرى إلى أن شاطره الرغيف. فتعجب الحسن رضي الله عنه من تجلي اسم **الله** الرحمن "**في هذه الرحمة**" التي لدى العبد الذي كان يُطعم الكلب. فقال له:

"ما حملك على أن شاطرته فلم تعاينه فيه بشيء؟" قال:

"استحت عيناي من عينيه أن أعاينه" فقال له:

"غلام من أنت؟" قال: "غلام أبان بن عثمان" فقال: "والحائط؟" فقال: "لأبان بن عثمان" وعند ذلك أراد

٢٥ انظر: الأبشيهي، المستطرف، بيروت، ١٩٨٦م، جـ. ١، ٣١.



الحسن رضي الله عنه أن يكون معه هذا العبد الذي هو عبد في ظاهره، ولكنه حبيب للحق قريب منه في حقيقته. فقال له:

"أقسمت عليك لا برحت حتى أعود إليك"

فمر فاشترى الغلام والحائط وجاء إلى الغلام فقال:

"يا غلام قد اشتريتك" فقام قائما فقال:

"السمع والطاعة لله ولرسوله ولك يا مولاي" وعندما سمع الحسن رضي الله عنه هذه الكلمات زادت مشاعر التعجب لصدق هذا العبد. وأمام صفاء قلب ذلك العبد ونقاء سريرته قال له الحسن:

"وقد اشتريت الحائط وأنت لوجه الله حر والحائط هبة مني إليك" فقال الغلام:

"يا مولاي قد وهبت الحائط للذي وهبتني له" (ابن منظور، مختصر تاريخ دمشق، جـ٧ / ٢٥)

أدب وحياء رسول الله ﷺ

لم يكن رسول الله ﷺ يتحدث بصوت عال. وكان يلاقي الناس بالبسمة ولين الجانب. وعندما كان يسمع كلمة غليظة



لا يستحسنها لم يكن يقول شيئًا أمام الناس. ولأن وجهه كان يعكس حال نفسه ومشاعره، لذا كان من حوله كلهم يتصرفون بحيطة في أحاديثهم وحركاتهم. وبسبب حيائه لم يكن يضحك بصوت عال أو قهقهة، بل كان ضحكه تَبَسُّماً، وكان الصحابة رضي الله عنهم يصفون رسول الله ﷺ بأنه أشد حياء من العذراء في خدرها.

وقد وصف رسول الله ﷺ الحياء فقال:

"...فإن الحياء من الإيمان" (البخاري، الإيمان، ١٦)

"إن الحياء والإيمان قرناء جميعا فإذا رفع أحدهما رفع الآخر" (البخاري، الأدب المفرد، رقم: ١٣١٣)

"إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه. ولا ينزع من شيء إلا شانه" (مسلم، البر، ٧٨؛ أبو داود الجهاد، ١)

والحياء الحقيقي يكون **"بتذكر الموت"** الذي هو الوسيلة لإخراج حب الدنيا من القلب. وكان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالحياء الحق من الله تعالى.

ذات يوم قال رسول الله ﷺ لأصحابه:



"استحيوا من الله حق الحياء" فقال الصحابة: **إنا نستحي والحمد لله.** فقال ﷺ:

"ليس ذاك، ولكن الحياء من الله حقَ الحياء: أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، ولتذكر الموت والبلى. ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ومن فعل ذلك استحيى من الله حق الحياء" (الترمذي، القيامة، ٢٤/ ٢٤٥٨)

ولم يكن رسول **الله** ﷺ ينظر في وجه أي شخص بحدة، كان خافضا الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء يعني جل نظره الملاحظة. وبسبب حياء الرسول ﷺ وشخصيته المتميزة العالية لم يكن يُصرّح بعيوب أي شخص أو نقائصه في حضوره.

وقد ذكرت السيدة عائشة رضي الله عنها: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا بَلَغَهُ عَنْ الرَّجُلِ الشَّيْءُ لَمْ يَقُلْ "مَا بَالُ فُلَانٍ يَقُولُ" وَلَكِنْ يَقُولُ:

"مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُونَ كَذَا وَكَذَا" (أبو داود، الأدب، ٥/ ٤٧٨٨)

وإذا أراد رسول الله ﷺ أن ينبه بعض المخاطبين بالخطأ الذي ارتكبوه مذكرًا إياهم أن هذا الخطأ لا يليق بهم، كان يقول لهم: "ما لي أراكم كذا وكذا"[٢٦]

وعندما كان رسول الله ﷺ صاحب المقام الرفيع ينصح أحد الناس فإنه كان حريصا جدا حتى لا يغضبَ أو يُحزن مَنْ يخاطبه، لأنه ﷺ كان مثالًا عُلْوِيًا للرحمة.

وهكذا فإن **مولانا جلال الدين** حبيب الحق الذي كان يتخلق بهذه الأخلاق النبوية قد عبر عن الحقائق المجردة مغلفة بعبارة عجيبة فقال:

"قال عقلي سائلا قلبي: ما الإيمان؟ فمال قلبي على أذن عقلي وقال له: الإيمان عبارة عن الأدب"

شجاعة رسول الله ﷺ

لا يمكن أن نتصور أن هناك بطلًا أعظم من رسول الله ﷺ لأنه لم يُر في حياته أبدًا وهو مضطرب أو خائف. وكان

٢٦. انظر: مسلم، الصلاة، ١١٩؛ ابن حبان، جـ. ٤، ٥٣٨.



رسولنا ﷺ يظهر ثابتًا صابرًا في مواجهة المواقف والأحوال كلها. ولم يغلب عليه في أي وقت الخوف والاضطراب.

وقد مر رسول **الله** ﷺ بلا خوف بين من يريدون قتله وهو يقرأ هاتين الآيتين:

«اِنَّا جَعَلْنَا فٖي اَعْنَاقِهِمْ اَغْلَالًا فَهِيَ اِلَى الْاَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ. وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ اَيْدٖيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَاَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» (يس، ٨-٩)

وقد وصفه سيدنا علي رضي الله عنه فقال:

"لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأسا" (أحمد، ج١، ٨٦)

مرة أخرى يصف البراء رضي الله عنه شجاعة الحبيب الأكرم ﷺ فيقول:

"كنا والله إذا اشتد البأس واحمر الحدق نتقي به. وإن الشجاع منا للذي يحاذي به يعني النبي ﷺ" (مسلم، الجهاد، ٧٩)

وكان ﷺ يحارب في المقدمة دائمًا لإعلاء كلمة الله تعالى. وفي غزوة حنين التي اهتزّ في بدايتها جيش المسلمين،



لم يهتز رسول الله ﷺ وأظهر صلابة وقوة وألقى بنفسه في صفوف العدو، وتقدم إلى العدو راكبًا بغلته؛ فزادت شجاعة أصحابه. وفي النهاية انتصر في الغزوة بفضل من الله تعالى ومعاونته. (مسلم، الجهاد، ٧٦-٨١)

وكان ﷺ يقول:

"والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأُقتل ثم أغزو فأُقتل، ثم أغزو فأُقتل" (مسلم، الجهاد، ١٠٣)

حِلْم رسول الله ﷺ

كان رسول الله ﷺ رجلا سهلا[27] فتقول عنه أُمّنا السيدة عائشة رضي الله عنها:

"ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله ﷺ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال: **"لبيك"** وبسبب أخلاقه العالية تلك نزلت فيه الآية الكريمة لتؤكد هذا الأمر قال الله عز وجل:

٢٧. مسلم، الحج، ١٣٧.



«وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (القلم، ٤)" (الواحدي، أسباب النزول، ٤٦٣)

ولم يكن رسول **الله** ﷺ ينتقم لنفسه قط في أي وقت، وكان يعفو دائمًا ويصفح.

ومرة أخرى تحدثنا السيدة عائشة رضي الله عنها عن أمور كثيرة تدلّ على حال الرقة واللين الذي كان في أخلاقه العالية فتقول:

"ما ضرب رسول **الله** ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد في سبيل **الله** وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم **الله** فينتقم **لله** عز وجل"

(مسلم، الفضائل، ٧٩)

وكان **سيدنا أنس** يحكي عن رسول **الله** ﷺ فيقول:

"مَا شَمِمْتُ شَيْئًا عَنْبَرًا قَطُّ وَلَا مِسْكًا قَطُّ وَلَا شَيْئًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ رَسُولِ **اللهِ** ﷺ وَلَا مَسِسْتُ شَيْئًا قَطُّ دِيبَاجًا وَلَا حَرِيرًا أَلْيَنَ مَسًّا مِنْ رَسُولِ **اللهِ** ﷺ" قَالَ ثَابِتٌ فَقُلْتُ:

"يَا أَبَا حَمْزَةَ أَلَسْتَ كَأَنَّكَ تَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ **اللهِ** ﷺ وَكَأَنَّكَ تَسْمَعُ إِلَى نَغَمَتِهِ" فَقَالَ:



"بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَلْقَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَقُولَ «**يَا رَسُولَ اللهِ خُوَيْدِمُكَ**» قَالَ خَدَمْتُهُ عَشْرَ سِنِينَ بِالْمَدِينَةِ وَأَنَا غُلَامٌ لَيْسَ كُلُّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ يَكُونَ. مَا قَالَ لِي فِيهَا «أُفٍّ» وَلَا قَالَ لِي «لِمَ فَعَلْتَ هذَا وَأَلَّا فَعَلْتَ هذَا»" (أحمد، ٣، ٢٢٢؛ البخاري، الصوم، ٥٣، المناقب٢٣؛ مسلم، الفضائل، ٨٢)

وقد مدح رسولُ الله ﷺ أحدَ الصحابة بهذه الكلمات فقال:

"إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: اَلْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ" (مسلم، الإيمان، ٢٥-٢٦)

وأَخْبَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي الْمَسْجِدِ فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ لِيَقَعُوا بِهِ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

"دَعُوهُ وَأَهْرِيقُوا عَلَى بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ" (البخاري، الأدب، ٨٠؛ الوضوء، ٦١)

ثم بعد ذلك بيّن رسول الله ﷺ لهذا الرجل بكلام عذب آداب المساجد وأهميتها.



ويقول أنس رضي الله عنه متحدثًا عن حلمه:

"كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رسول اللّٰه ﷺ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَبَذَهُ بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَدِيدَةً حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ رسول اللّٰه ﷺ قَدْ أَثَّرَتْ بِهَا حَاشِيَةُ الْبُرْدِ مِنْ شِدَّةِ جَبْذَتِهِ ثُمَّ قَالَ:

«يَا مُحَمَّدُ مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللّٰه الَّذِي عِنْدَكَ»

فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ رسول اللّٰه ﷺ ثُمَّ ضَحِكَ ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ"

(البخاري، اللباس، ٨١؛ الخُمس، ٩١؛ الأدب، ٨٦؛ مسلم، الزكاة، ٢٨١)

وما كان توفيق رسول **الله** ﷺ في تبليغ دعوته، إلا ببركة هذه الأخلاق والحلم العالي. وفي هذا يقول الحق عز وجل:

«فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ **اللهِ** لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» (آل عمران، ١٥٩)

وفي الحقيقة فإن أهل الجاهلية في تلك الأيام كانوا يذوبون مثل الشمعة أمام شخصية رسول **الله** ﷺ اللينة، وأمام عفوه وأخلاقه الجميلة وحلمه وتسامحه. وقد تخلصوا من وحشيتهم وسوء طباعهم وأصبحوا كالفراش حول نور



الإنسانية المبين. لأن رسول الله ﷺ لم يكن يريد الخسران للإنسانية، بل كان يطلب لهم الهداية ولم يكن ﷺ يمثل العذاب بل كان يمثل الرحمة.

شفقة رسول الله ﷺ ورحمته

يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"الراحمون يرحمهم الرحمن. ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء". (الترمذي، البر، ١٦/ ١٩٢٤)

وعندما سمع بكاء الطفل خاف أن تُفتن أمه فتجوّز وقصّر في صلاته حتى تنظر إليه أمه. وكان يتهجد الليالي الطوال وتذرف عيناه بالدموع الغزار وهو يدعو لأمته. وكان يشغل وقته كله لكي ينقذ الناس من النار. تلك كانت علامات على عمق رحمة رسول الله ﷺ وشفقته.

ولأنه أُرسل رحمة للعالمين فقد شملت رحمته وحبه الأرواح كلها. وذات يوم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يدعو على الْمُشْرِكِينَ فقال:

"إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً" (مسلم، البر، ٨٧ الترمذي، الدعوات، ١١٨)



وعندما ذهب رسول **الله** ﷺ إلى الطائف ليبلغ الناس دعوة الإسلام قام المشركون وعُبّاد الأصنام برجمه بالحجارة. فجاء إليه ملك الجبال مع سيدنا جبريل عليه السلام وقال لرسول **الله** ﷺ:

"هل تريد أن أهلك هؤلاء القوم، لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟" فقال النبي ﷺ:

"بل أرجو أن يُخرِج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا" (البخاري، بدء الخلق، ٧ مسلم، الجهاد، ١١١)

وفي شأن أهل الطائف هؤلاء الذين أصابوا رسول **الله** ﷺ بأنواع الأذى كلها وطردوه من بلادهم، وعاملوه بشدة حتى السنة التاسعة للهجرة، وسببوا خسائر للمسلمين. قال فيهم رسول **الله** ﷺ:

"اللّهمّ اهْدِ ثَقِيفًا وَاْتِ بِهِمْ". واستمر يدعو لهم حتى جاء أهل الطائف في نهاية الأمر إلى المدينة المنورة ودخلوا في دين **الله الإسلام**. (ابن هشام، ٤/ ١٣٤ الترمذي، المناقب، ٧٣/ ٣٩٤٢)

إن أبا أسيد جاء النبي ﷺ بسبي من البحرين فنظر النبي ﷺ إلى امرأة منهن تبكي فقال: **"ما شأنك؟"** فقالت: "باع ابني"



فقال النبي ﷺ لأبي أسيد: "**أبعت ابنها؟**" قال: "نعم" قال: "**في من؟**" قال: "في بني عبس" فقال النبي ﷺ:

"**اركب أنت بنفسك فائت به**"[28]

وقد شملت رحمة رسول الله ﷺ وشفقته الدنيا كلها. وقد قال ﷺ:

"**لن تؤمنوا حتى تحابّوا أفلا أدلكم على ما تحابّوا عليه**" قالوا:

"بلى يا رسول الله" قال:

"**أفشوا السلام بينكم تحابّوا والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تراحموا**" قالوا:

"يا رسول الله كلنا رحيم" قال:

"**إنه ليس برحمة أحدكم ولكن رحمة العامة، رحمة العامة**" (الحاكم، جـ. ٤، ١٨٥/٧٣١٠)

٢٨. على المتقي الهندي، كنز العمال، بيروت، ١٩٨٥، ٤، ١٧٦/١٠٠٤٤.



عفو رسول الله ﷺ

إن الله تعالى يحب العفو، ولو تاب العبد وشعر بالندم والألم من قلبه على أخطائه وذنوبه، فإن الله تعهد أن يقبل توبته. ولأن الله عفو غفور، لذا فهو يريد أن يكون عباده من أهل العفو.

وشرط العفو الندم وطاعة أوامر الله وتجنب الحرام. وأجمل أمثلة العفو نجدها في حياة النبي ﷺ فقد عفا عن **هند** التي أسلمت يوم فتح مكة بعد أن كانت قد لاكت بأسنانها كبد عمه سيدنا حمزة رضي الله عنه يوم غزوة أحد.

وكان **هبار بن الأسود** من ألد أعداء الإسلام، وقد ضرب برمحه الجمل الذي كانت تركبه السيدة زينب بنت رسول الله ﷺ أثناء هجرتها من مكة إلى المدينة، فسقطت السيدة زينب من على جملها. وكانت رضي الله عنها حاملًا في طفلها فأجهضت وبقيت تنزف بشدة. وكان هذا الجرح سببًا في وفاتها بعد ذلك وقد ارتكب هبار من الأخطاء مالا يحصى. وبعد فتح مكة هرب ولم يُقبض عليه. وبينما كان رسول الله ﷺ يجلس مع أصحابه في المدينة المنورة جاء إليه هبار ووقف عليه فقال:



"السلام عليك يا رسول **الله**، إني أشهد أن لا إله إلا **الله** وأنك رسول **الله** ولقد هربت منك في البلاد وأردت اللحوق بالأعاجم ثم ذكرت عائدتك وفضلك وبِرّك وصفحك عمن جهل عليك؛ وكنا يا رسول **الله** أهل شرك فهدانا **الله** ﷻ بك، وأنقذنا بك من الهلكة فاصفح عن جهلي وعما كان يبلغك عني، فإني مقر بسوء فعلي، معترف بذنبي" فقال رسول **الله** ﷺ:

"قد عفوت عنك، وقد أحسن الله بك حيث هداك للإسلام والإسلام يَجُبُّ ما كان قبله"

ونهى رسول **الله** ﷺ عن سبّه والتعريض له. (الواقدي، جـ. ٢، ٨٥٧-٨٥٨)

و**عكرمة بن أبي جهل** كان من أعداء الإسلام المعروفين، لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عاقلة أسلمت ثم سألت رسول **الله** ﷺ الأمان لزوجها فأمرها برده فخرجت في طلبه وقالت له:

"جئتك من عند أوصل الناس و أبر الناس و خير الناس و قد استأمنت لك فأمنك" فرجع معها فلما دنا من مكة قال رسول الله ﷺ لأصحابه:

"يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنا مهاجرا فلا تسبوا أباه فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت" فلما بلغ باب رسول الله ﷺ استبشر ووثب له رسول الله ﷺ قائما على رجليه فرحا بقدومه. (الحاكم، المستدرك، ٣، ٢٦٩)

وقال له: **"مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ"**[٢٩] وعفا عنه ولم يُذكّره بما فعل من المساوئ.

وكثيرًا ما كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه:

"اللّٰهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (انظر: البخاري، الأنبياء، ٥٢؛ ابن ماجه، المناسك، ٥٦؛ أحمد، جـ. ١، ٤٤١)

وعندما دخل **ثمامة بن أثال** زعيم اليمامة الإسلام فَقَالَ:

"أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللّٰهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّٰهِ يَا مُحَمَّدُ وَاللّٰهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ

٢٩. الترمذي، الإستئذان، ٣٤/ ٢٧٣٥.

فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ وَاللّٰهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِك فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ وَاللّٰهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى"

فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ "صَبَوْتَ" قَالَ:

"لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللّٰهِ ﷺ وَلَا وَاللّٰهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنْ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ"

(البخاري، المغازي، ٧٠)

وقطع ثمامة علاقته التجارية مع المشركين. وكان المعتاد أن قريشًا كانت تأخذ حاجاتها وأرزاقها كلها من اليمامة. فتعرض أهل مكة للجوع والقحط ولجؤوا إلى رسول الله ﷺ لينقذهم من هذا الأمر. فكتب رسول الله ﷺ خطابًا إلى ثمامة ألا يقطع تجارة قريش.[٣٠]

---

٣٠. ابن عبد البر، الاستيعاب، القاهرة، بدون تاريخ، جـ. ٢، ٢١٤-٢١٥؛ ابن الأثير، أسد الغابة، القاهرة، ١٩٧٠، جـ. ١، ٢٩٥.

وقد نسي هؤلاء المشركون أنهم حرموا المسلمين الطعام والشراب في شعب أبي طالب ثلاث سنين، ولكن رسول **الله** ﷺ عفا عنهم.

وفي السنة السابعة للهجرة بعد فتح خيبر بلغ رسولَ **الله** ﷺ ما فيه أهل مكة من الضر والحاجة والجدب والقحط فبعث إليهم بشعير ذهب، وقيل نوى ذهب، مع عمرو بن أمية الضمري وأخذه أبو سفيان كله وفرقه على فقراء قريش، وقال معبرًا عن شكره من هذا الصنيع:

"جزى الله ابن أخي خيرًا فإنه وَصول لرحمه" (اليعقوبي، التاريخ، جـ ٢، ٥٦)

وهكذا بعد مدة دخل أهل مكة الإسلام بعد أن رقّت قلوبهم أمام هذه الفضائل الكبيرة.

وفي الحديبية جاءت سرية من المشركين وهجمت على رسول **الله** ﷺ تريد قتله. وقُبض عليهم جميعًا، وعفا عنهم رسول **الله** ﷺ. (مسلم، الجهاد، ١٣٢، ١٣٣)

وبعد فتح خيبر وضعت امرأة السم لرسول **الله** ﷺ في الطعام وعندما أخذ رسول **الله** ﷺ قطعة اللحم إلى فمه تركها.

واعترفت المرأة اليهودية أنها وضعت السم في الطعام. ولأنها اعترفت بهذا الأمر، فقد عفا عنها رسول الله ﷺ

(البخاري، الطب، ٥٥؛ مسلم، السلام، ٤٣)

ورغم أن رسول الله ﷺ قد علم عن طريق الوحي أن لبيدًا المنافق اليهودي قد سحره وسبب له الاضطراب والمرض. وعلم أيضًا من دفعه إلى هذا العمل، فإن رسول الله ﷺ لم يتذكر هذا الجرم الذي أجرمه لبيد هذا ولم يقتله بهذا الجرم، ولم يقتل أي شخص من يهود بني زريق الذي ينسب إليهم لبيد"[٣١]

وفي ذلك تقول الآية الكريمة:

«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ»

(الأعراف، ١٩٩)

والعُبّاد العارفون أيضًا -الذين استطاعوا الاقتراب من رسول الله ﷺ بالمحبة وكان فيهم جزء من عفوه- كانوا يتمسكون دائمًا بطريق العفو على أمل أن ينالوا به العفو

٣١. انظر: ابن سعد جـ. ٢/ ١٩٧؛ البخاري، الطب، ٤٧-٤٩؛ مسلم، السلام، ٤٣؛ النسائي، التحريم، ٢٠؛ أحمد، ٤/ ٣٦٧.

الإلهي. فمثلًا **منصور الحلاج** عندما كان يُرجم بالحجارة كان يتضرع إلى الله تعالى قائلًا:

"يا رب! أُعف عمن يرجمني قبل أن تعفو عني"

رعاية رسول الله ﷺ لحقوق الجار

كان رسول الله ﷺ يحرص دائمًا على رعاية حق الجار، لذا قال في حديثه الشريف:

"ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُوَرِّثه"

(البخاري، الأدب، ٢٨؛ مسلم، البر، ١٤٠-١٤١)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

"الجيران ثلاثة فمنهم من له ثلاثة حقوق ومنهم من له حقان ومنهم من له حق فأما الذي له ثلاثة حقوق: فالجار المسلم القريب له حق الجار وحق الإسلام وحق القرابة وأما الذي له حقان: فالجار المسلم له حق الجوار وحق الإسلام وأما الذي له حق واحد: فالجار الكافر له حق الجوار"[٣٢]

٣٢. البيهقي، الشعب، ٧/ ٨٣؛ السيوطي، الجامع الصغير، مصر، ١٣٢١هـ، ١/ ١٤٦.



والإخلال بحقوق الجار يكون بـ: النظر إلى نافذته، وأذيته برائحة الطعام، والإتيان بتصرف لا يعجبه.

لذا يقول رسول الله ﷺ:

"خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللهِ خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ" (الترمذي، البر، ٢٨)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:

"ليس بالمؤمن الذي يبيت شبعانا وجاره جائع إلى جنبه" (الحاكم، جـ. ٢، ١٥/ ٢١٦٦)

وذكر أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يأمره إذا صنع طعامًا أن يزيد من المرق ليأخذ منه ويوزع على الجيران فقال ﷺ:

"يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك"

(مسلم، البر، ١٤٢)

"إذا عملت مرقة فأكثر ماءها واغترف لجيرانك منها"

(ابن ماجه، الأطعمة، ٥٨)

وكان أبو ذر رضي الله عنه من أفقر الصحابة، أي أنه ليس هناك عذر حتى للفقير للوفاء بحق الجار.

وقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال ذات يوم:

"والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن!" فسأل الصحابة الكرام رضي الله عنهم: **"من يا رسول الله"** فأجاب سيد الخلق أجمعين: **"الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ"** (البخاري، الأدب، ٢٩؛ الترمذي، القيامة، ٦٠)

وفي رواية أخرى قال: **"لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه"** (مسلم، الإيمان، ٧٣)

معاملة رسول الله ﷺ للفقراء

كان رسول الله ﷺ يعامل الفقير واليتيم والأرملة والغريب بالشفقة والرعاية والاهتمام[٣٣] وكان يتعامل معهم بعطف كبير حتى لا يشعروا بما هم فيه من الفقر.

ويحكي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول:

"جلست في عصابة من ضعفاء المهاجرين -وإن بعضهم ليستتر ببعض من العري- وقارئ يقرأ علينا، إذ جاء رسول الله ﷺ فقام علينا. فلما قام رسول الله ﷺ سكت القارئ، فسلم

٣٣. البخاري، النفقة، ١؛ مسلم، الزهد، ٤١-٤٢.

رسول الله ﷺ ثم قال: «**ما كنتم تصنعون؟**» قلنا: يا رسول الله إنه كان قارئ لنا يقرأ علينا فكنا نستمع إلى كتاب الله. فقال رسول الله ﷺ: «**الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبّر نفسي معهم**»[٣٤] قال: فجلس رسول الله ﷺ وسطنا ليعدل بنفسه فينا.

ثُمَّ قَالَ بِيَدِه هكَذَا فَتَحَلَّقُوا وبرزت وجوههم له. قال: فما رأيت رسول الله ﷺ عرف منهم أحدا غيري. فقال رسول الله ﷺ:

«**أبشروا يا معشر صعاليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة؛ تدخلون الجنة قبل أغنياء الناس بنصف يوم وذاك خمسمائة سنة**»" (أبو داود، العلم، ١٣/٣٦٦٦)

وذات يوم كان رسول الله ﷺ يجلس في المدينة فجاءه قوم حفاة عراة قد برزت عظامهم من الجوع والحر، فتمعر وجه الرسول ﷺ لما رأى بهم من الفاقة. فدخل ثم خرج فأمر بلالًا فأذّن وأقام. فصلى ثم خطب وحث الصحابة ﷺ على

---

٣٤. يشير ﷺ إلى قوله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ اَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوٰيهُ وَكَانَ اَمْرُهُ فُرُطًا» (الكهف، ٢٨)



الإنفاق ومساعدة هؤلاء الفقراء فسارع الصحابة ﷺ إلى تقديم المساعدة لهم، وعندما رأى رسول **الله** ﷺ ذلك الأمر تهلل وجهه وشعر براحة. (مسلم، الزكاة، ٦٩-٧٠؛ أحمد، ٣٥٨/٤-٣٦١)

وكانت حياة الرسول ﷺ عامرة بمواقف العطاء والاستقامة والصدق والرحمة والشفقة والرقة. وكان رسول **الله** ﷺ يوصي السيدة عائشة رضي الله عنها فيقول لها:

"يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ! يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ فَإِنَّ اللهَ يُقَرِّبُكِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" (الترمذي، الزهد ٢٥٢٦/٣٧)

ويحكي عباد بن شرحبيل فيقول:

"أصابتني سنة (السنة المجاعة تصيب الناس) فدخلت حائطًا من حيطان المدينة ففركت سنبلا فأكلت وحملت في ثوبي فجاء صاحبه فضربني وأخذ ثوبي فأتيت رسول **الله** ﷺ فقال له:

«ما علّمت إذ كان جاهلًا ولا أطعمت إذ كان جائعًا» وأمره فَرَدَّ عليّ ثوبي، وأعطاني وسقا أو نصف وسق من **طعام"** (أبو داود، الزهد ٢٦٢٣/٩٣؛ النسائي، القضاة ٢١)



ويدل الحديث على أن الإسلام يبحث أولًا عن منشأ الخطأ والجرم، ويبذل الجهود لإصلاح الأخطاء وتقويم المذنبين. فمن هذا الوجه تشبه العقوبات في الشريعة الإسلامية معاقبة الأم والأب لأولادهما، فلا تكون الغاية من هذا العقاب الطرد من الحياة الاجتماعية، بل ضم المذنب من جديد لهذه الحياة.

معاملة رسول الله ﷺ للأسرى والخدم

إن شفقة رسول الله ورحمته امتدت حتى لأسرى الحرب فكان الرسول ﷺ يأمر أن يعاملوا بالحسنى. ويحكي أبو عزيز أخو مصعب بن عمير تلك الحادثة المعبرة فيقول:

كنت في الأسرى يوم بدر فقال رسول الله ﷺ:

«استوصوا بالأسارى خيرًا»

وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر، وأطعموني البُر لوصية رسول الله ﷺ. ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها. فأستحيي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها (انظر: الهيثمي، ٦/٨٦؛ ابن هشام، ٢/٢٨٨)



وقد أراد الرسول ﷺ إلغاء العبودية والرق الذي كان موجودا قبل عصره، وقد اتخذ خطوات كبيرة في هذا الطريق. فكان ﷺ في كل فرصة يشجع الناس على تحرير العبيد. وكان يقول إن هذا الأمرعبادة كبيرة. وكان تحرير وعتق رقبة يأتي في المرتبة الأولى عند أداء كفارة قسم من الذنوب. وكان رسول الله ﷺ دائمًا يوصي بهذا الأمر حتّى إن أحب رجل إلى رسول الله ﷺ وأقرب أصدقائه إليه وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد أنفق جزءًا كبيرًا من ثروته في تحرير العبيد وعتقهم لوجه الله تعالى.

عَنْ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: لَقِيتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه بِالرَّبَذَةِ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وَعَلَى غُلَامِهِ حُلَّةٌ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ:

"إِنِّي سَابَبْتُ رَجُلًا فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ فَقَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ:

«يَا أَبَا ذَرٍّ أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمْ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ»" (البخاري، الإيمان ٢٢؛ مسلم، الأيمان، ٣٨)

وقد زوج أحد الرجال عبده بجاريته، وبعد ذلك أراد أن يطلقهما. فذهب العبد وعرض هذا الموقف على سيدنا رسول الله ﷺ فقال:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يُزَوِّجُ عَبْدَهُ أَمَتَهُ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمَا إِنَّمَا الطَّلاَقُ لِمَنْ أَخَذَ بِالسَّاقِ" (ابن ماجه، الطلاق ٣١، الطبراني الكبير، ج١١، ٣٠٠)

وفي مواجهة مثل هذا الأمر وغيره من الأحداث المشابهة له كان الصحابة رضي الله عنهم يفضلون تحرير عبيدهم في جميع الأوقات. وبالتدريج ألغيت العبودية إلى يومنا هذا. يعني أن الإسلام قد رفع قيد العبودية عن رقبة الإنسان؛ تلك العبودية التي كانت واحدة من حقائق تاريخ الإنسانية باعتبارها إحدى شرائع الحرب.

أما الإسلام فكان يأمر دائمًا صاحب العبد أن يطعمه مما يأكل، ويكسوه مما يلبس ولا يحمله فوق طاقته، وأن يكفل حاجاته. وقد بيّن الإسلام أن تحرير العبيد هو عمل صالح وهو طريق أكيد لنجاة المؤمنين. وقد وضع الإسلام حقوقًا للعبيد يجب صيانتها ورعايتها بحيث تجعل من ليس له عبد أفضل ممن له عبد. وبحيث يكون صاحب العبد في ظل هذه

الحقوق أشبه ما يكون بالعبد نفسه. وقد قال رسول **الله** ﷺ وهو يحتضر:

"الصَّلَاةَ الصَّلَاةَ اتَّقُوا اللّٰهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ" (أبو داود، الأدب، ١٢٣-١٢٤ /٥٢٥٦؛ ابن ماجه، الوصايا، ١)

وذلك من أبلغ وصاياه ﷺ لأمته.

يعني أن رسول **الله** ﷺ قد أغلق الأبواب المؤدية للعبودية، وفتح أبواب تحرير العبيد حتى نهايتها. وشجع وحثّ في كل فرصة على تحرير العبيد والإماء. فهل هناك نموذج أجمل من هذا لإنهاء العبودية؟

وذلك الموقف الحقيقي كاف لكي يوضح لنا إلى أي مكانة رفع الإسلام العبيد:

فكما هو معلوم كان سيدنا **بلال الحبشي** رضي الله عنه عبدًا قبل أن يدخل في الإسلام، ولكنه بعد إسلامه جعله رسول **الله** ﷺ كبير المؤذنين وشيخهم. وأكبر مثال على ذلك أننا نشاهد على رأس جُدران مجالس المؤذنين مكتوبا "يا بلال الحبشي!"

مرة أخرى كان **زيد بن حارثة عبدًا** أهدته السيدة خديجة رضي الله عنها للرسول ﷺ وأعتقه النبي ﷺ وأصبح ذلك الصحابي المبارك نموذجًا للفضائل الرفيعة كلها كصحابي عاشق للرسول ﷺ. وأيضًا فإن ابنه **أسامة بن زيد** جعله رسول **الله** ﷺ قائدًا على جيش المسلمين وهو شاب.

وكان **طارق بن زياد** فاتح الأندلس عبدًا يوضع الطوق حول عنقه ويُباع ويُشترى، ولكن ذلك العبد في ظل الإسلام ارتفع إلى مكانة تليق بشرفه، وعزته الإنسانية، وأصبح قائدًا لجيوش المسلمين.

باختصار جعل الإسلام العبد في مكانة السيد، ولهذا السبب عارض المشركون الإسلام. وفي يومنا الحاضر ألم يفعل منكرو الإسلام الشيء نفسه؟! والغاصبون في دنيا اليوم ألم يجعلوا كثيراً من البشر الأحرار عبيدًا؟! ألم يغتصبوا باسم الحرية حقوق الأبرياء والضعفاء من أجل استغلال إمكاناتهم المادية البحتة؟! وهل يختلف نظام العبودية الحديث عديم الرحمة الذي تعيشه الإنسانية اليوم -بالأسماء والتعبيرات الرنانة الطنانة التي تصك الآذان عندما تسمعها- عن المظالم التي عرفها التاريخ؟

وعلى هذا فإن الإسلام الذي ألغى العبودية بالأمس بمبادئه وأسسه العالية، وأعلى من قيمة الإنسان وقدره وفضله، لهو قادر اليوم على أن يقدم وصفة العلاج للإنسانية من جديد.

ولو فعلت الإنسانية غير ذلك فسوف تتعرض للهلاك والضياع بين أنياب مفاهيم حب المنفعة.

أين مساوئ الاستعمار التي ما زالت تمتص دماء الضعفاء وتحولهم إلى العبيد من مبادئ الإسلام العالية والخالدة التي عبر عنها لسان الرسول ﷺ وهو يتحدث عن الأسرى والخدم قائلا:

"فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ" (البخاري، الإيمان، ٢٢؛ مسلم، الأيمان، ٣٦-٣٨)

تلك الكلمات التي أعلى بها الإسلام قدر الإنسان كائنًا من كان في أي زمان ومكان.

والواقع أن الوسيلة الوحيدة لخلاص الإنسانية اليوم هي الوسيلة نفسها التي أنقذت الإنسانية قديمًا؛ ألا وهي اتباع هدي رسول **الله** ﷺ، والتعلق به، فقد وضع ﷺ مقاييس



محكمة لمعاملة الناس، وأعطى الإنسان قيمته، ولم يكن يفرق بين أحد: فقيرا كان أو غنيا، رئيسا أو مرؤوسا، سيدا أو خادما. وعندما جاءه أحد الصحابة الكرام رضي الله عنهم يسأله: كم نعفو عن الخادم؟ فقال له رسول الله ﷺ:

"اعفوا عنه كل يوم سبعين مرة" (أبو داود، الأدب، ١٢٣-١٢٤ / ٥١٦٤؛ الترمذي، البر ١٩٤٩/٣١)

وقد كانت رحمة النبي ﷺ بحرا لا شاطئ له وكانت ظرافته ورعايته لقلوب الناس لا مثيل لها. ومما يدل على ذلك قوله ﷺ:

"إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه، فإن لم يُجلسه معه، فليناوله أكلةً أو أكلتين، أو لقمةً أو لقمتين، فإنه ولي حره وعلاجه" (البخاري، الأطعمة، ٥٥؛ الترمذي، الأطعمة، ٤٤)

لو أراد الله تعالى لجعل الخادم سيدًا والسيد خادمًا. لذا كان يجب علينا أن نحمد الله تعالى كما يجب وأن نعامل من هم تحت إدارتنا معاملة حسنة.



معاملة رسول الله ﷺ للنساء

كانت المرأة في الجاهلية تلقى معاملة تخلّ احترامها كأنثى وكسيدة. وكان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم في التراب أحياء بلا رحمة؛ مخافة جلب العار. وكانت قلوبهم المتحجرة ترتكب تلك الجناية السيئة، لكي يحموا أنفسهم من مصيبة يتصورونها بخيالهم. ويصور الحق ﷻ حالهم هذا في القرآن الكريم فيقول:

«وَاِذَا بُشِّرَ اَحَدُهُمْ بِالْاُنْثٰى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ» (النحل، ٥٨)

وكان الناس في الجاهلية يعاملون النساء والبنات معاملة تحط من قدرهن، فكانوا يتخذونهن كوسيلة للتسلية بشكل مُخِلٍّ للشرف. حتى جاء رسول الله ﷺ فتأسست حقوق النساء، وأصبحت المرأة رمزًا للعفة والفضيلة في المجتمع. وأصبحت مؤسسة الأمومة رمزًا للشرف. والمرأة بهذا العطف المحمدي الذي جاء في الحديث الشريف:



"**الجنة تحت أقدام الأمهات**"[٣٥] قد وصلت إلى القيمة والقدر التي تستحقها.

وما أجمل ذلك المثل الذي يدل على الحنان والرقة التي كان يبديها رسول **الله** ﷺ للنساء فقد كان رسول **الله** ﷺ في سفر وكان معه غلام اسمه أنجشه يحدو فكانت الإبل تسرع[٣٦] فخاف رسول **الله** ﷺ على أجساد النساء الضعيفة التي تركب فوق تلك الإبل المسرعة فقال لهذا العبد:

"**ارْفُقْ يَا أَنْجَشَةُ وَيْحَكَ بِالْقَوَارِيرِ**" (البخاري، الأدب، ٩٥؛ أحمد، ج٣، ١١٧)

وفي حديث آخر يقول رسول **الله** ﷺ:

"**اللّٰهم إني أُحَرِّجُ حق الضعيفين اليتيم والمرأة**" (ابن ماجه، الأدب، ٦)

ويقول أيضًا في حديثه الشريف:

---

٣٥. النسائي، الجهاد، ٦٢، أحمد، جـ. ٣، ٤٢٩، السيوطي جـ. ١، ١٢٥.
٣٦. كانت الإبل تُفتن بالصوت الجميل والنغم الجميل. وكان حادي الإبل يغني بصوت جميل كي تسرع قافلة الجِمال.



"لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا رضي منها آخر" (مسلم، الرضاع، ١٨)

لأن المرأة في الحقيقة ليست أرضا شائكةً حتى تستحق العداوة والبغضاء؛ بل المرأة عبارة عن حديقة وبستان تليق بالمحبة والعشق. وحبها في الأساس هو منحة وعطاء من الله تعالى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ في حديثه الشريف:

"حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ" (النسائي، عشرة النساء، ١٠؛ أحمد، ج٣، ١٢٨، ١٩٩)

فلا ينبغي أن يُقَيَّمَ هذا الحب بعين الغفلة، فالمرأة مستودع النطفة التي يأتي منها خليفة الله على الأرض.[٣٧]

---

٣٧. لا يمكن أن نرى أي ميل أو سقوط شهواني في أي من زيجات الرسول الأكرم ﷺ فهو لم يتزوج بكرًا في شبابه، وكانت أول زوجة له أرملة في الأربعين من عمرها هي السيدة خديجة رضي الله عنها ولم يتزوج عليها طول عمرها، وعاش معها أحلى سني عمره. وبعد أن ماتت كان رسول الله ﷺ قد بلغ سن الكهولة. وقد تزوجهن كلهن بعد سن الرابعة والخمسين ولم يكن هذا الأمر برغبة منه، بل كان بأمر إلهي يهدف -بجانب حكم إلهية كثيرة- إلى تعليم زوجاته الدين. وفي الغالب كانت أكثر أمهات المؤمنين اللاتي تزوجهن رسول الله ﷺ



يجب أن يعلم أنّ ذلك الحب قد وضعه الحق ﷻ في الفطرة، وجعل تلك الفطرة على منزلة ودرجة مهيأة لهذا الحب العالي. وعلى هذا فلم يكن حب الرسول للنساء ميلا سفليا، بل على العكس فإنه قد أعطى لهن القيمة العلوية التي يستحقونها. والمرأة في تاريخ الإنسانية قد نالت قيمتها الإلهية تلك في ظل الإسلام الحنيف. والواقع أن الأنظمة كلها التي ادعت أنها أعطت قيمة للمرأة -فيما عدا الإسلام- قد أعطت لها قيمتها فقط كمادة للزينة، أما ما عدا ذلك وفي حقيقة الأمر فكان يتم سحق المرأة واستهلاكها واستعمالها كمتاع اقتصادي وشهواني.

وعلى هذا النحو يجب أن تعيد الإنسانية في عصرنا الحاضر النظر إلى المرأة بشكل صحيح، وأن يتم ذلك من جديد بذهنية الإسلام العلوية المباركة. فالمرأة والرجل منذ

مسنات وبلا عائل ولديهن أطفال. والحاصل أن توفيق سيدنا رسول الله ﷺ في القيام بمهام النبوة الكثيرة، وبمهام الزوجية في ذلك السن الكبير؛ يبين بوضوح حقيقة أن تلك الزيجات قد تمت وتحققت بتعيين إلهي، وكانت غايتها توصيل الإسلام براحة وسهولة إلى كتل بشرية أوسع. لمزيد من المعلومات، انظر: عثمان نوري طوباش، سيدنا محمد المصطفى ﷺ، جـ. ١، ١٣٠-١٤٠.



لحظة الخلق الأولى هما: عالمان واسعان يُكمل أحدهما الآخر. ولكن في هذا التكامل أعطى الحق ﷻ دورًا مؤثرًا للمرأة أكثر. لأن المرأة هي التي تفسد المجتمعات وهي التي تعمرها. وبهذه القيمة يكون أكبر مثال وأعلاه في نظر الإسلام وهو تربية وإعداد المرأة التي تصلح المجتمع. وفي ذلك يقول الحديث الشريف:

"مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ أَوْ ثَلَاثُ أَخَوَاتٍ أَوْ ابْنَتَانِ أَوْ أُخْتَانِ فَأَحْسَنَ صُحْبَتَهُنَّ وَاتَّقَى اللهَ فِيهِنَّ فَلَهُ الْجَنَّةُ" (الترمذي، باب الصلة، ١٣/ ٢٠٤٠ أبو داود، الأدب، ١٣١/ ٥١٤٧ أحمد، جـ. ٣، ٩٧)

ومرة ثانية يقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ" وَضَمَّ أَصَابِعَهُ (مسلم، البر، ١٤٩؛ الترمذي، البر، ٢٠٣٨/١٣)

ثم بعد ذلك أكد رسول الله ﷺ على قيمة المرأة الصالحة فقال:

"الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة" (مسلم، الرضاع، ٦٤؛ النسائي، النكاح، ١٥؛ ابن ماجه، النكاح، ٥)



وبشكل عام فإن وراء كل عظيم امرأة صالحة. فمثلًا كانت **السيدة خديجة** رضي الله عنها زوجة النبي ﷺ هي أكبر وأول داعم له في بداية الدعوة. ولم ينسها رسول **الله** ﷺ طوال عمره. وكذلك **السيدة فاطمة الزهراء** رضي الله عنها كان لها دور واضح جلي في نجاحات سيدنا علي رضي الله عنه.

نخلص من ذلك إلى أن المرأة الصالحة هي أكبر وأعظم نعم الدنيا. وبهذا الاعتبار وضع النبي في حديثه الشريف شرطًا يُعرف به العبد الصالح، ألا وهو معاملة النساء بالحسنى فقال:

"أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خُلقًا وخياركم خياركم لنسائهم خُلقًا" (الترمذي، الرضاع ١١/ ١١٦٢، ١١٩٥)

وعلى تلك الحال يكون من الوضاعة والدناءة الكبيرة أن تصبح المرأة موضعًا للذة فقط، وأن يُنظر إليها كمتاع للحواس والرغبات الشهوانية، وأن يُتعلق بها من الناحية الجسمية فقط. إن عدم احترام المرأة هو نوع من العمى تجاه الخصائص العالية كلها التي وهبها الله للمرأة. لأن المرأة في عالم اليوم تُستثمر كوسيط إعلاني دعائي متكشفة في ذلك العالم الاستهلاكي، فيا له من وضع مُخِلّ لشرف المرأة وقدرها وقيمتها إلى أقصى حد.

إن المرأة يجب أن تُربى كمهندس ومؤسس حقيقي للمجتمع، وأن تكون حِضْنًا (حضانة) سماويًا يربي الفاتحين؛ لأنه لم يُخلق لها وجود آخر يكون ملائمًا لها -يستحق الاحترام والحب الحقيقي- أكثر من أن تكون أمًا. فالأم الحقيقية التي حملتنا في بطنها مدة من الزمن، ثم حملتنا بين يديها وفي قلبها حتى الوفاة، ووقفت نفسها ووهبت حياتها كلها لعائلتها؛ لذلك تليق بالحب الواسع والاحترام العميق والشكر طوال العمر.

وعندما نأتي إلى الرائحة الجميلة للرسول ﷺ فقد كانت هي الحكمة التي حببت للرسول ﷺ، والعمق والرقة التي أُعطيت لروحه. والرائحة الجميلة كانت ريحا طيبة عاطرة تحبها الملائكة. وهي علامة النظافة أيضًا؛ لأن من تنبعث منه الرائحة الزكية يكون نظيفًا فمثلًا، كان جسم الرسول ﷺ معطرًا دائمًا في جميع الأوقات برائحة الورد. وكان الورد يظهر من العرق المبارك الذي يسقط منه. وعندما كان رسول الله ﷺ يمسح على رأس طفل كانت رائحة المسك تنبعث من ذلك الرأس لمدة طويلة.

وفي ذلك يروي الأَعْمَشُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ : كَانَ رسول اللّه ﷺ يُعْرَفُ بِاللَّيْلِ بِرِيحِ الطِّيبِ. (الدارمي، المقدمة، ١٠)



وإذا تطرّقنا لجوهرالصلاة رأينا أن قرة عين النبي ﷺ جعلت فيها. لأن الصلاة وصلة ولقاء مع الرب ﷻ، ومن أجل هذا يجب أن تُؤدّى على أنها العبادة التي تتم بها اتصال العبد بربه ﷻ فكأن المصلي يرى الله ﷻ فإن لم يكن يراه فإن الله يراه. من أجل ذلك جُعلت قرة عين النبي ﷺ في الصلاة.

معاملة رسول الله ﷺ لليتامى

لقد أرسل الحق ﷻ رسوله الحبيب ﷺ إلى الدنيا يتيمًا لكي يُكسِبَ اليُتْمَ قيمة خاصة تمامًا. وكان رسول الله ﷺ يحنو على الأيتام، ويعتني بهم في رفق كبير. وفي القرآن الكريم توجد آيات كثيرة حول مراعاة حقوق اليتيم. فالله تعالى يوجه الناس في كتابه الكريم لما يجب أن يفعلوه تجاه اليتامى فيقول:

«فَاَمَّا الْيَتٖيمَ فَلَا تَقْهَرْ» (الضحى، ٩)

ويقول رسول الله ﷺ في حديثه الشريف:

"خير بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُحسن إليه، وشر بيت في المسلمين بيت فيه يتيم يُساء إليه" (ابن ماجه، الأدب، ٦)

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ:



"من قبض يتيمًا بين المسلمين إلى طعامه وشرابه أدخله الله الجنة البتة، إلا أن يعمل ذنبًا لا يُغفر له" (الترمذي، البر ١٤/١٩١٧)

وفي حديث آخر قال ﷺ:

"مَنْ مَسَحَ رَأْسَ يَتِيمٍ لَمْ يَمْسَحْهُ إِلَّا لله كَانَ لَهُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ مَرَّتْ عَلَيْهَا يَدُهُ حَسَنَاتٌ وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَى يَتِيمَةٍ أَوْ يَتِيمٍ عِنْدَهُ كُنْتُ أَنَا وَهُوَ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ" وَفَرَّقَ بَيْنَ أُصْبُعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى (أحمد، جـ. ٥/ ٢٥٠)

وكان رسول **الله** ﷺ يوصي أصحاب القلوب الرحيمة في المجتمع بإصرار وشدة أن يقوموا بوظيفتهم الاجتماعية اللازمة تجاه اليتامى فيقول:

"أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى (البخاري، الأدب، ٢٤)

وقد أوصى رسول **الله** ﷺ الصحابي الذي كان يشكو قسوة القلب بتلك الوصية فقال له:

"إن أردت تليين قلبك فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم" (أحمد، جـ. ٢، ٢٦٣، ٣٨٧)



ومرة أخرى يصل النبي ﷺ إلى ذروة الرحمة والشفقة حيث يقول:

"أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، من ترك مالا فلأهله، ومن ترك دينًا أو ضياعًا فإليّ وعليّ" (مسلم، الجمعة، ٤٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ٧)

معاملة رسول الله ﷺ للحيوانات

إن كل تصرف للنبي الرحيم ﷺ كان يقوم على الرحمة والمحبة. فقد اقترب من المخلوقات بالشفقة، وأزال حاجة كل محتاج. وقد أخذت الحيوانات أيضًا نصيبها من بحر المحبة الواسع هذا. فمثلًا كان الناس في العهد الجاهلي يتصرفون بلا رحمة وبلا عدل تجاه الحيوانات. فكانوا يقطعون لحوم الحيوانات وهي حية بلا رحمة، ويأكلونها. وكانوا يقيمون المسابقات تتصارع فيها الحيوانات وتتضارب. وقد أنهى رسول الله ﷺ هذه الصور كلها المخالفة للضمير والفطرة السليمة.

ويحكي أبو واقد الليثي فيقول:

قدم رسول **الله** ﷺ المدينة وهم يجبون أسنمة الإبل، ويقطعون إليات الغنم. فمنع رسول **الله** ﷺ ذلك الأمر وقال:

"ما قُطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة" (الترمذي، الصيد، ١٢/١٤٨٠؛ أحمد، ٥، ٢١٨)

عن جابر أن النبي ﷺ رأى حمارا قد وسم في وجهه قال:

"ألم أنه عن هذا؟ لعن الله من فعله" ونهى عن ضرب الوجه (أبو يعلى، المسند، ٤، ٧٦)

عن عبد الرحمن بن عبد الله عن أبيه قال: كنا مع رسول **الله** ﷺ في سفر فانطلق لحاجته فرأينا حمرة (الحمرة طائر) معها فرخان فأخذنا فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تفرش (أي ترفرف) فجاء النبي ﷺ فقال:

"مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا" ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال:

"من حرق هذه؟" قلنا: نحن. قال:

"إنه لاينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار" (أبو داود، الجهاد، ٢٦٧٥/١١٢، الأدب، ١٦٣-١٦٤ /٥٢٦٨)



وذات مرة خرج رسول **الله** ﷺ من المدينة محرمًا قاصدًا مكة المكرمة وعندما وصل إلى مكان يسمى **الأُثاية** رأى ظَبْيًا قد تمدد ونام تحت ظل شجرة. فأمر سيد العالمين رسول **الله** ﷺ أحد أصحابه **أن يَقِفَ عِنْدَهُ لاَ يُرِيبُهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ حَتَّى يُجَاوِزَهُ.** (الموطأ، الحاج، ٧٩؛ النسائي، الحاج، ٧٨)

ومرة أخرى عندما كان رسول **الله** ﷺ متوجهاً لفتح مكة بجيش ضخم قوامه عشرة آلاف جندي، فَكَانَ فِيمَا بَيْنَ الْعَرْجِ وَالطّلُوبِ نَظَرَ إِلَى كَلْبَةٍ تَهِرّ عَلَى أَوْلَادِهَا وَهُمْ حَوْلَهَا يَرْضَعُونَهَا، فَأَمَرَ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ يُقَالُ لَهُ جُعَيْلُ بْنُ سُرَاقَةَ **أَنْ يَقُومَ حِذَاءَهَا، لَا يَعْرِضُ لَهَا أَحَدٌ مِنْ الْجَيْشِ وَلِأَوْلَادِهَا.**

(الواقدي، جـ. ٢، ٨٠٤)

وذات يوم مَرَّ رَسُولُ **الله** ﷺ بِبَعِيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ فَقَالَ:

"اتَّقُوا اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً وَكُلُوهَا صَالِحَةً" (أبو داود، الجهاد، ٤٤ / ٢٥٤٨)

عَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ: أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لَا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنْ الْأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ:

"مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ" فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللّٰهِ فَقَالَ:

"أَفَلَا تَتَّقِي اللّٰهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللّٰهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ" (أبو داود، الجهاد، ٤٤/٢٥٤٩)

ومرة ثانية كان رسول اللّٰه ﷺ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ وَهُمْ وُقُوفٌ عَلَى دَوَابٍّ لَهُمْ وَرَوَاحِلَ فَقَالَ لَهُمْ:

"ارْكَبُوهَا سَالِمَةً وَدَعُوهَا سَالِمَةً وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ لِأَحَادِيثِكُمْ فِي الطُّرُقِ وَالْأَسْوَاقِ *فَرُبَّ مَرْكُوبَةٍ خَيْرٌ مِنْ رَاكِبِهَا وَأَكْثَرُ ذِكْرًا لِلّٰهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْهُ*" (أحمد، ج. ٣، ٤٣٩)



ومرة أخرى قابل رسول الله ﷺ ذات يوم رجلًا يذبح شاة وبعد أن أرقد الرجل الشاة ليذبحها أخذ يحد شفرته فنبهه رسول الله ﷺ إلى هذا التصرف غير الرحيم وقال له:

"أتريد أن تميتها موتات؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها" (الحاكم، ٤، ٢٥٧، ٢٦٠)

عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **"ألا أخبركم بمن تحرم عليه النار؟"** قالوا : بلى يا رسول الله قال: **"على كل هين لين قريب سهل"** لجميع المخلوقات. (ابن حبان، صحيح، ٢، ٢١٦/٤٧٠؛ أحمد، جـ. ١، ٤١٥)

يبين رسول الله ﷺ مكانة الأشخاص الرحماء وغير الرحماء فيقول:

"بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ فَقَالَ «لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي» فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمَّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ" قَالُوا:

يَا رَسُولَ اللهِ وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا؟ قَالَ:

"فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ" (البخاري، المساقاة، ١٠)

وفي حديث آخر:

"عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ" (البخاري، الأنبياء ٥٤، مسلم، السلام ١٥١، ١٤٥، البر ١٣٣، النسائي، الكسوف، ١٤)

وبهذه المقاييس حوّل رسول العروبة والإنسانية محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام هذا المجتمع الجاهلي إلى خير مجتمع والقرن إلى خير القرون. حتى إن الأشخاص الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء أصبحوا أقطابًا للرحمة والشفقة التي امتدت حتى إلى الحيوانات.

لأن رسول الله ﷺ القدوة الحسنة بالنسبة لهم؛ كان يرعى حق كل شيء حتى حق العصفور الصغير. وقد مزج الصحابة وخلطهم بحساسية ورقة لا يمكن وصفها. حتى عندما أمرهم رسول الله ﷺ بقتل العقرب والثعبان أمرهم أن يقتلوها بضربة واحدة حتى لا يعذبوها أكثر وفي ذلك يقول الحديث الشريف:

"من قتل وَزَغَة (البرص) في أول ضربة فله كذا وكذا حسنة، ومن قتلها في الضربة الثانية فله كذا وكذا حسنة لدون الأولى، وإن قتلها في الضربة الثالثة فله كذا وكذا حسنة لدون الثانية" (مسلم، السلام، ١٤٧ أبو داود، الأدب، ١٦٢-١٦٣ / ٥٢٦٣)

أي إن رسول الله ﷺ كان يوصي بالرأفة والرحمة حتى في قتل الحيوانات الضارة التي يجب قتلها كالحية والعقرب. أليس كل هذا نموذجًا كافيا للشفقة التي كان يحملها ﷺ في صدره الشريف والتي يصعب الوصول إليها لإنسان عادي.

ولم يكن رسول الله ﷺ يحب المدح في أي وقت بسبب هذه العبودية لله والأخلاق العالية له. وكان يعدد نعم الله عليه قائلًا في تواضع كبير **"لا فخر"** (الترمذي، المناقب، ١؛ ابن ماجه، الزهد، ٢٣٧؛ أحمد، جـ. ١، ٥، ٢٨١)

ولأن منبع الغرور هو المدح والثناء. وهو واحد من الأسباب التي تؤدي إلى طغيان البشر. ومع أن رسول الله ﷺ كان أشرف الخلق ورغم أن الله تعالى قد مدحه، إلا أنه كان يقول عن نفسه:

"لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ

فَقُولُوا: «عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ»" (البخاري، الأنبياء، ٤٨؛ أحمد، جـ. ١، ٢٣)

والواقع أن خاصية العبودية توجد في كل إنسان؛ فإما أن يكون الإنسان عبدًا لمنافعه ومتطلباته، أو يكون عبدًا لربه. ومن كان عبدًا لربه يحفظ من أن يكون عبدًا لمتطلباته ومنافعه النفسية والإنسانية وينجو من ذلك.

وسيدنا رسول **الله** ﷺ لم يظهر أدنى قصور أو نقصان أو عدم كفاءة في التوازن الذي أسسه بين جوانب الحياة المختلفة. وليس من الممكن أن نجد في التاريخ نموذجًا ثانيًا يضاهي شخصية رسول **الله** ﷺ.

فنحن من الممكن أن نصادف في المجتمعات أبطالًا كان لهم التفوق والمهارة في بعض جوانب الحياة. أما رسول **الله** ﷺ فكان نموذجًا متفردًا وحيدًا جمع في شخصه جوانب التفوق كلها.

والحاصل أنه ﷺ كان شخصية نموذجية استثنائية في أعلى درجات الرقي والعلو عرفتها البشرية حتى يومنا الحاضر في جميع خصائصها وجوانبها.

ولقد وهب رسول **الله** ﷺ للإنسانية كلها مجموعة من الفضائل والخصال التي لا يدانيها أحد في العبودية



والمعاملات والأخلاق. باختصار وهب ﷺ الإنسانية جماليات مادية و معنوية لا نظير ولا مثيل لها.

لذا فقد كان رسول الله ﷺ مرشدًا أبديًا أدرك بفطنته مسؤولية أن يكون شخصا مثاليا أمام العالم.

ونود أن نفيد هنا بأن الرسول ﷺ كان يولي للصلاة أهمية خاصة فوق كل شيء. فكان ينام قليلا من الليل، وكان جسده المبارك لا يرى الفراش في أغلب الأوقات. وبينما كان الناس يتلذذون في نومهم بالليل، كانت دموع عينيه تسيل وهو ساجد. حتى إنه قبيل وفاته ﷺ بينما وصلت خطورة مرضه إلى أقصى حد كان يخرج من غرفته ويذهب إلى المسجد ويصلي مع الجماعة كلما استعاد قواه.

وها هو عبد الله بن الشخير رضي الله عنه يحكي عن خشوع رسول الله ﷺ في الصلاة فيقول:

"أتيت النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعني يبكي" (أبو داود، الصلاة، ١٥٦، ١٥٧/٩٠٤؛ النسائي، السهو، ١٨٠)

وباستثناء رمضان لم يكن يمر شهر أو أسبوع دون أن يصوم رسول **الله** ﷺ صيام نفل. وفي ذلك تقول أُمّنا السيدة **عائشة** رضي الله عنها:

"كان رسول **الله** ﷺ يصوم حتى نقول: لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم" (البخاري، الصوم، ٥٢)

وكان رسول **الله** ﷺ يصوم دائمًا الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر من كل شهر، وستة أيام من شوال، ويوم التاسع مع العاشر أو العاشر مع الحادي عشر من شهر محرم. وكان من عادته صيام الاثنين والخميس من كل أسبوع.

ومع نزول آية الزكاة أمر رسول **الله** ﷺ المؤمنين بإيتاء الزكاة، والإنفاق من أجل الخير. ولكنه طبق ذلك بنفسه أولًا، وقدم أجمل الأمثلة على الإنفاق. وعاش على أفضل ما يكون قول الحق ﷻ: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» (البقرة، ٣) وكان يمدح ويثني على المال الذي يُصرف على الخير كما كان يمدح التُّجار الأتقياء الذين ينفقون أموالهم في سبيل **الله**.



مقاييس عالية تُطاول النجوم

لم يدخر رسول الله ﷺ شيئًا من متاع الدنيا، وأي شيء كان يصل إليه كان ينفقه في سبيل الله تعالى، ولكن هذا الأمر كان خصلة خاصة به. وقد حكى الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري رضي الله عنه قال:

"كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَرَّةِ الْمَدِينَةِ فَاسْتَقْبَلَنَا أُحُدٌ فَقَالَ:

«**يَا أَبَا ذَرٍّ**» قُلْتُ:

«لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله» قَالَ:

«**مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هذَا ذَهَبًا تَمْضِي عَلَيَّ ثَالِثَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ إِلَّا شَيْئًا أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ إِلَّا أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ الله هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا**» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ. ثُمَّ مَشَى فَقَالَ:



«**إِنَّ الْأَكْثَرِينَ هُمْ الْأَقَلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا مَنْ قَالَ هكَذَا وَهكَذَا وَهكَذَا**» عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ وَمِنْ خَلْفِهِ «**وَقَلِيلٌ مَا هُمْ**»...“ (البخاري، الرقاق، ١٤؛ الاستقراض، ٣؛ مسلم، الزكاة، ٣٢)

وأحيانا كان رسول **الله** ﷺ يواصل الصوم ليومين أو ثلاثة دون أن يأكل أو يشرب وعندما يسأله أصحابه رضي الله عنهم أن يصوموا مثله كان يقول لهم: ”**لا تواصلوا**“ قَالُوا: «إِنَّكَ تُوَاصِلُ» قَالَ: «**لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنْكُمْ إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى**» ونهاهم عن ذلك رَحْمَةً لَهُمْ وَإِبْقَاءً عَلَيْهِمْ. (البخاري، الصوم، ٤٨)

فمن الضروري أن نوضح مسألة أخرى، وهي أنه كما يجب علينا أن نعرف أن سيدنا النبي ﷺ مرشد متميز وقدوة فريد لنا فكذلك يجب علينا أن نعرف مقياسنا في الاقتداء به ﷺ. لأن سلوكه وأفعاله تنقسم إلى:

١) أفعال وأحوال خاصة به فقط.

٢) أفعال وأحوال تشمل المسلمين كلهم.

وعلى هذا النحو ليس في مقدورنا أن نتمثل بهذا النموذج في الفضائل العلوية التي كانت منحصرة في شخصه الشريف فقط. لأن تلك الأحوال والأفعال العالية أصلًا هي نوع من



مقادير ومقاييس تطاول النجوم، وهذه الأحوال لا طاقة لنا أن نتصورها وأن نصل إليها. أما الكلمات والأحوال والسلوكيات التي يشملها القسم الثاني فمن المستطاع أن نقلدها ونقتدي بها ونسير في نورها كل بحسب الاستعداد والطاقة والجهد.

وعلى الرغم من أنه لا يمكن لأحد من البشر أن يصل إلى قدر المصطفى محمد ﷺ، إلا أنه يستطيع أن يكون "**محمدًا**" صغيرًا في عالمه هو، بسيره ودأبه على هديه ﷺ.

فمثلًا كان من الإلهام الدقيق أن يسمي العثمانيون الجنود الأبطال المدافعين عن الوطن باسم "**المُحَيْمِد**" أي "**الجنيد المحمدي**"

وعلينا ألا ننسى أننا نستطيع أن نعرف مقدار المال الذي يجب علينا أن ننفقه لنقوم بواجبنا في عبادة الزكاة ولكننا لا نستطيع أن نعرف مقدار العمل الذي يجب علينا أن نؤديه لنقوم بواجبنا في مقابل الإمكانات والقابليات التي وهبها الله لنا. لذا سنظل ملزمين حتى آخر نَفَس لنا أن نعيش حياة العبودية لله بقدر ما نستطيع.



وفي هذا الشأن فإن أفضل ميزان ومقياس لنا لكي نزن حالنا هو: الأنصار والمهاجرون؛ الذين رباهم وعلمهم رسول **الله** ﷺ. وهم لكي يؤدوا شكر النعم التي حصلوا عليها، سافروا حتى الصين وسمرقند. ولم يظهروا أي ملل أو تعب أو نصب في أي وقت في سعيهم وحماستهم لنشر هذا الدين وذلك الإيمان.





القسم الثالث

- صلاح القلب في اتباع رسول الله ﷺ
- اتباع رسول الله ﷺ بالحب والتعلق له
- عصر السعادة: مرآة لأخلاقه ومحبته ﷺ
- ترنمات حارة في حب رسول الله ﷺ
- الصلوات والتسليمات الشريفة على النبي ﷺ

صلاح القلب في اتباع رسول الله ﷺ

لقد استفاد الصحابة الكرام ﷺ بشكل مؤكد من رسول الله ﷺ على أنَّهُ الأسوة الحسنة. ولكي نصل إلى أخلاق الصحابة الكرام ﷺ العالية يجب علينا أن نصلح القلوب أولًا لكي نحقق هذا الأمر؛ لأن الآية الكريمة تتحدث عن الأسوة الحسنة فتقول:

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا» (الأحزاب، ٢١)

وكما توضح الآية فإن رجاء لقاء الله تعالى واليوم الآخر وذكرَ الله كثيرًا، يشكلان خطوات مهمة يجب اتخاذها لكي نستطيع التمثل من شخصية رسول الله ﷺ المثالية.

فالعبادات تتم في أوقات محددة معينة، لكن يجب المحافظة على الإيمان بشكل دائم. واللحظات كلها هي أداء لِحَقِّ الإيمان بالله ﷻ والبحث عن رضاه سبحانه وتعالى، لذا



يُشترط في هذا الأمر أن يكون المؤمن في حالة ذكر دائم، لكي لا يضعف قلبه ويستطيع مقاومة وساوس الشيطان والنفس بشكل لائق، ولا ينسى الله تعالى طرفة عين.

ولذلك يقول الحق ﷻ في كتابه العزيز:

«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا»[٣٨]، لأن هذه الآية لم تحدد لنا بشكل واضح عدد ومقدار هذا الذكر ولأن أمر الذكر لم يحدد بالعدد فكل أمر مطلق لا يتم إلا بالكمال[٣٩] وفي هذه الحال فإن من يريد أن يصبح عبدًا كاملاً لا بد أن يذكر الله كثيرًا في كل فرصة وعلى قدر استطاعته.

وفي آية أخرى يقول المولى ﷻ:

«اَلَّذِينَ اٰمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللّٰهِ اَلَا بِذِكْرِ اللّٰهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد، ٢٨)

وليس القصد من ذكر الله تعالى تكرار اللفظ فقط بدون تمعّن ولكن يجب أن يتمكن ذكر الله في القلب الذي هو

---

٣٨. الأحزاب ٤١. انظر: الجمعة، ١٠.

٣٩. كل أمر لا يذكر حده ومقداره يكون القصد الوصول به إلى الغاية، وإلى أقصى درجة يمكن القيام به.



مركز الإحساس وأن يستشعر الإنسان لذة عند ذكر الله تعالى. والنتيجة المؤكدة أن ذكر الله تعالى وحلوله في قلب المؤمن يُذهب الأمراض عنه، ويطهر القلب من الدرن والصدأ ويملؤه بالنور ويُكسبه رقةً وإحساسًا، ويجعله متعطشًا للأسرار الإلهية. فعندما تكون نبضات القلب متطبعة بـ "**الله**" فنية العبد وعمله تكسب قدرًا وعَلاءً، لذا يقول ﷺ في حديثه الشريف:

"**علامة حب الله حب ذكر الله**" (البيهقي، شعب، ١، ٣٦٧؛ السيوطي، جـ. ٢، ص٥٢)

فالمحبّون لا ينسون محبوبيهم طرفة عين، ولا يغيبون عن ذكر ألسنتهم وقلوبهم. فمن أراد أن يتذوق حلاوة الإيمان لا بد أن يداوم على الذكر القلبي وأن يداوم على الذكر في جميع أحيانه: قائما وقاعدا وعلى جنبه. وأيضًا يجب أن يستغرقوا في التفكير في الحكم المتعددة الدقيقة والخفية التي من أجلها خلق الله السموات والأرض فيقولوا:

«رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (آل عمران، ١٩١)



أما القلوب التي لم تحقق هذه الرقة وذلك العمق فهي لا تريد **الله** جَلَّ جَلَالُهُ، لذا يقول الحق تبارك وتعالى:

«فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللّٰهِ اُولٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» (الزمر، ٢٢)

فأي إنسان يبتعد عن ذكر **الله** كما تقول الآية يفقد حسه، وخاصيته الإنسانية.

والحاصل أنه لكي يكون العبد تابعًا لرسول **الله** ﷺ، وأن يستفيد منه كما يحب ويرجو، لا بد أن تمتلئ القلوب بالمحبة الإلهية، وأن تتجرد من هوى النفس ومتاع الدنيا، وأن تتحلى بطلب ورجاء **الله** واليوم الآخر وتتزين بذكر **الله** كثيرًا.





اتباع رسول الله ﷺ بالحب والتعلق له

إن ثمرة المحبة والعشق الحقيقي للنبي ﷺ هو أن يصبح تراب طريقه تاجًا للرؤوس وأن يُطاع ويُسلم له من صميم القلب والروح. لأن شخصيةً كتلك الشخصية هي عبارة عن رحمة أبدية للإنسانية كلها في جميع نواحيها.

وتعرض تلك الآية الكريمة كيف كان قلب النبي ﷺ مملوءً بالشفقة والرحمة إلى أقصى حد تجاه المؤمنين فتقول:

«لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ اَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ» (التوبة، ١٢٨)

ويوضح هذا الحديث الشريف أيضًا رحمته وشفقته بالأمة فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:



نعى إلينا رسول الله ﷺ نفسه قبل موته بشهر، فلما دنا الفراق جمعنا إليه في بيت أُمِّنا عائشة رضي الله عنها ثم نظر إلينا ودمعت عيناه وتشدد، فقال:

"مرحبا بكم حياكم الله. رحمكم الله. آواكم الله. نصركم الله. رفعكم الله. نفعكم الله. هداكم الله. رزقكم الله. وفقكم الله. سلمكم الله. قبلكم الله. أوصيكم بتقوى الله. وأوصي الله بكم. واستخلفه عليكم..."[٤٠]

ولقد كان الرسول ﷺ مرشدًا وهاديًا ورحمة شملت وأحاطت بالإنسانية كلها بفعله وقوله وحياته الأخلاقية. وفي طريق دعوته تحمل ﷺ فوق كتفه وكاهله أكبر المشقة وأشد العناء. وقد بلغ به الحد في صبره وحماسه أن عرض نفسه للهلاك في بعض الأحيان كي تنال أمته الهداية والرحمة.

حتى إن الله قد حذره من أن يهلك نفسه فى سبيل دعوته فقال في قرآنه الكريم:

---

٤٠. الطبراني، الأوسط جـ. ٤، ٢٠٨؛ أبو نعيم، حلية الأولياء، بيروت، ١٩٦٧، جـ. ٤، ١٦٨.



«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلٰى اٰثَارِهِمْ اِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الْحَدِيثِ اَسَفًا» (الكهف، ٦)

وقال تعالى في آية أخرى:

«لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ اَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (الشعراء، ٣)

وهذه الآيات الكريمة هي دليل على رغبة النبي ﷺ في أن يؤمن بالله تعالى كل إنسان يعيش في هذه الدنيا، وفي أن يخلصهم من عذاب جهنم لرحمته وشفقته بالأمة.

وأمام تلك الشفقة والرحمة والمحبة الواسعة التي كان يبديها رسول الله ﷺ لأمته، يجب علينا كأمة، التفكيرُ فيما يجب أن نعطيه كمقابل لهذا الحب.

في الحقيقة إن مقياس محبتنا لرسول الله ﷺ يظهر باتباعنا للقرآن ولسنة الرسول، وأن يتبدل حالنا بحاله، فكيف كان يشعره ويعرفه الصحابة ﷺ الذين أحبوه وضحّوا في سبيله بكل شيء؟ وكيف تبدلت أحوالهم بحاله؟ وكيف انعكست أخلاقه على حياتهم؟ فأين نحن من هذه الأحوال؟ فيجب علينا أن نزن محبتنا للرسول ﷺ بهذه المقاييس، وأن نزين قلوبنا بأخلاقه. ويجب أن نطهر أنفسنا من ذنوبنا وأخطائنا



وتقصيرنا بأن نتخلق بأخلاقه الكريمة الطاهرة، كما نطهر أبداننا بماء زمزم، ويجب أن نحيا حياة معنوية وبعثًا معنويًا مقتدين بحياته ﷺ.

والسر الذي يوصل إلى **الله** تعالى يكمن في الاقتراب بقلب سليم خالص إلى كتاب **الله**، وإلى سنة نبيه الوضاءة. أي اتباع أخلاق النبي ﷺ وهديه العلي، كما أن السر يكمن أيضًا في المحبة التي نبديها لكل من يحب **الله** تعالى والرسول ﷺ، وفي بغض كل ما يخالف ذلك.

لأن المحبة الإلهية تحيي القلوب وتجلب لها العافية وتجعله تستقيم على الخير. والمحبة والبغض الذي هو ضدها لا يمكن أن يجتمع كلاهما في قلب واحد في نفس الوقت. وأيما قلب خلا من أحدهما فقد امتلأ بالآخر. والفرق فيما بين هذين الضدين كالمسافة اللامحدودة بين أعلى عليين وأسفل سافلين.

وما أجمل تلك الأبيات التي ينبه بها الشاعر **كمال أديب كوركجوأوغلي** المؤمنين الغافلين، البعيدين عن سنة رسول **الله** ﷺ وعن محبته فيقول:



واأسفـاه.. واأسفـاه على من بقي بعيدًا عن عطفه فقد خسر بغفلته الدارين.!!

نعم واأسفـاه على من حُرم عطف رسول الله ﷺ وأصبح من الغافلين فخسر الدنيا والآخرة.

فيا رب اجعلنا أمة تليق بمحبته ﷺ لأنه كان أفقًا للرحمة والشفقة لا يدانيه أحد.

وما أعجب ما فعل رسول الله ﷺ تجاه هؤلاء الناس والذي بذل كل جهده وطاقته لدعوتهم وهدايتهم، فما كان منهم إلا أن حقروا من شأنه وقذفوه بالحجارة فدعا لهم الرسول ﷺ بالخير ولم يدع عليهم. فما كان من **زيد بن حارثة** رضي الله عنه إلا أن قال له:

يا رسول الله إنهم ظلموك أشد الظلم فهلا تدعو عليهم الآن. وكان ﷺ كعادته يدعو لهم بالهداية والصلاح لأنه أرسل رحمة للعالمين ولم يرسل للدعاء على الناس بالهلاك.



فهل شهد أحدٌ قط مثل تلك القمة الشامخة من التضحية العالية، والوفاء النادر، وطيبة القلب والرحمة والشفقة التي كان عليها رسول **الله** ﷺ!

إن البشرية قد وصلت بنبوّة محمدٍ ﷺ إلى أكمل مرشد كانت تنتظره ليهديها للعالم العلوي. ولهذا فإن من استمر في حياة شهوانية بعد أن رأى شخصية رسول **الله** ﷺ المثالية الجليلة لهو أكثر مسؤولية ممن عاش حياة جاهلية قبل بعثته ﷺ.

ومن هذه الناحية فإن الإنسانية في يومنا هذا تعيش سلطة النفس التي ترنو إلى القوة، لذا فهي تحتاج بشدة إلى إنشاء شخصية ونموذج تشبه شخصية الرسول ﷺ.

والواقع أن أكبر مؤثر في عصور العظمة التي عاشها تاريخنا كان وجود المؤمنين أصحاب العمل الصالح الوارثين الحقيقيين للنبي ﷺ عالي القدر والمقام. فهم قد قدموا شخصيات نموذجية لمجتمعاتهم.

والحال هكذا، فإن من أشد الحقائق التي تثير الحزن عندما ننظر إلى أحوالنا مشاهدة الخسران الذي تعيشه الأمة



في المجال المعنوي بسبب ندرة الشخصيات النموذجية كتلك الشخصيات التي تحدثنا عنها.

ومرة أخرى يجب أن نكون أصحاب نماذج بشرية لكي نصل من جديد إلى مستوى أبطال الإيمان الذين اتبعوا هدي النبي ﷺ والذين كانت قلوبهم مملوءة بالوجد والحماس، تلك النماذج التي كانت أفضل ما عرفه تاريخنا. ومن أجل ذلك فإنه يجب أن نسمع لهم، ونشعر بهم، ونفهمهم، وأن نحصل على نصيب من عوالمهم القلبية.

أي يجب أن نعلم جيدًا كيف تعاملوا مع هذه الدنيا الفانية، وكيف أنهم استعملوا العقل والخضوع والإدراك والروح والأموال التي أنعم الله بها عليهم لكي يشقوا طريق السعادة لأنفسهم وللإنسانية.





عصر السعـادة[٤١]: مرآة لأخلاقه وحبـه ﷺ

لقد كان التأثير الباطني والتربية الظاهرية لرسول الله ﷺ كإكسير حوَّل ذلك المجتمع الجاهلي شبه المتوحش الذي لا يعرف الكثير عن الإنسانية، ووصل به في زمن قصير إلى مجتمع على مستوى من الرقي لا يمكن تخيله، ويغبطه إلى الآن تاريخ الإنسانية جمعاء، ألا وهو مجتع الصحابة. ولقد جعلهم يتكاملون ويتّحدون تحت دين وراية وثقافة وحضارة وشريعة وحُكم واحد.

وقد حوّلت تلك التربية هؤلاء البشر الجاهلين إلى مثقفين، والعصاةَ المتوحشين القتلة إلى أشخاص مدنيين صالحين، كما حول المجرمين والسفهاء إلى مُتَّقِينَ يعني جعلهم رجالاً صالحين يعيشون بحب الله ومخافته.

وقد شهد ذلك المجتمع الجاهلي -الذي لم يستطع أن

---

٤١. المقصود هنا بعصر السعادة هو العصر الذي عاش فيه الرسول ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم.



يربي رجلًا واحدًا ذا قيمة طوال تاريخه- ظهور عدد كبير جدًا من البشر الذين تشربوا بالصفات العلوية ورضعوها في ظل روحانية رسول الله ﷺ وتعاليمه. وهؤلاء قد حملوا الإيمان والفيض الذي عرفوه إلى أركان الدنيا الأربعة وتحولوا إلى مشاعل علم وعرفان. والواقع أن النور الذي نزل إلى الصحراء قد أخذ الأبدية تحت ظلاله، ووزع الحق والعدل والنورعلى الإنسانية كلها وأصبح ظاهرًا سر **"لولاك لولاك"**[٤٢] وبهذا تحقق هدف خلقه ﷻ المخلوقات.

ولقد كوّن هؤلاء الذين رباهم رسول الله ﷺ مجتمعًا معرفيًا. وكان ذلك العصر هو عصر تفكر عميق، وعصر معرفة الرسول ﷺ، ومعرفة الحق ﷻ عن قرب. وقد جعل الصحابة ﷺ من التوحيد مركزًا لفكرهم وتصوراتهم ونجحوا في تخليص المنافع الدنيوية من قلوبهم، وذاقوا لذة الإيمان وأصبح المال والروح وسائل وليست غايات. ووسعوا من الرحمة وأصبح المبدأ الأسمى للحياة عندهم هو أن تخدم الآخرين. وقُدمت بهذا تضحيات كبيرة كما أعطوا لنا نموذجاً

٤٢. انظر هذا الحديث الذي يعبر عن هذه الحقيقة لولاك ما خلقت الأفلاك: الحاكم، جـ. ٢، ٦٧٢/ ٤٢٢٨.



لشخصية المسلم حتى روي أن طالبا للحديث الشريف قد سافر شهرًا لطلب حديث واحد ثم عاد. ولم يأخذ الحديث من الراوي بسبب خداعه وغشه الحصان.

فما الذي أخذه الصحابة من رسول **الله** ﷺ. لقد أخذوا:

١) الانعكاس (أي تبدل حالهم بحال رسول الله ﷺ)

٢) تحصيل القـرب من الله تعالى.

وفي ظل هذين الأمرين تطهر الصحابة الكرام رضي الله عنهم من قبح الباطل والشر كله، وتخلقوا في حياتهم بجمال الحق والخير كله. وقد ظهر عندهم مفهوم جديد للحق عز وجل وللكائنات وللنفس. وأصبحت غاياتهم هي تَمَثُّل حالهم بحال الرسول ﷺ كانعكاس الشمس على مرآة صغيرة.

وقد وصلت حدود الدولة الإسلامية الصغيرة التي تأسست في المدينة، والتي تشكلت من أربعمائة عائلة تقريبًا وصلت في عشر سنوات إلى العراق وفلسطين، وعند وفاة النبي ﷺ كانت تلك الدولة في حالة حرب مع الروم والفرس. لكن الصحابة رضي الله عنهم لم يغيروا نمط حياتهم ولا مستوى معيشتهم ولا معمار منازلهم عما كان عليه الحال



قبل عشر سنوات، واستمرت معيشتهم في حياة التقشف والعبادة. ولم يعرف مجتمع الصحابة ﷺ نمط الحياة القائم على الاستهلاك المفرط والرفاهية والشره. وكانوا يدركون دائمًا **"أن منزل هذه النفس غدًا سيكون القبر"** ولهذا السبب كانوا يتجنبون دائمًا امتلاك نعم الدنيا واستهلاكها بشكل يزيد عن الحد، وكانوا يستعملون تلك النعم في نشوة الإيمان ولذته كوسيلة لهداية الإنسانية وسعادتها.

وكان أحد الأسباب الرئيسية لانتشار الإسلام بهذه السرعة وانتشار هذا الضياء مثل فجر الصباح بين مجتمعات الإنسانية المظلومة المطحونة المُستعمرة؛ هو تجسد الإسلام في شخص الصحابة ﷺ في كل مكان وصلوا إليه. لأن الصحابة الكرام ﷺ كانوا خواص رسول الله ﷺ، وكانوا مؤمنين استثنائيين ممتلئين بالعبادة، والصدق، والعدل، وغنى القلب، ونور الرسالة. لذا نظروا بعين الخالق إلى المخلوق بالرحمة والرأفة إلى عباده في الأرض.

وهم قد ثبتوا المولى ﷻ ورسوله ﷺ في سويداء قلوبهم، وهكذا وصل ذلك المجتمع الأمي الذي لا يعرف القراءة

ولا الكتابة إلى الذروة في المدنية والحضارة. وكانت قلوبهم تردد ذلك النداء العلوي "**ماذا يريد الله تعالى منا؟ وكيف يرضى الله عنا وكيف يحب رسول الله ﷺ أن يرانا؟**"

لقد شكل هؤلاء البشر العصور والأزمان، وأُكرمت الإنسانية بعصر سعادة.

وتخلص هؤلاء المؤمنون من شر النفس الأمّارة بالسوء، وجعلوها نفوسًا دائمة السؤال والتحقيق واللوم، وأصبح هؤلاء البشر المتوحشون البدو مثل الملائكة.

وقد قال **الإمام القرافي** أحد أهم علماء الأصول في الشريعة الإسلامية المتوفى سنة ٦٨٤هـ:

"**لو لم يكن لرسول الله ﷺ أي معجزة إلا أنه ربى هؤلاء الصحابة الكرام** رضي الله عنهم**، لكانت هذه كافية لإثبات أنه رسول الله**" وكان كل واحد منهم أي من هؤلاء الصحابة الكرام رضي الله عنهم مثالًا حيًا على معجزة القرآن الكريم، وقد وصلوا إلى الذروة في الفراسة والحصافة وفي تمثل القيم الإنسانية.

وقد عاشوا في ذلك العصر متطلبات العقل والقلب معًا بشكل متوازن للغاية ووصل بالمؤمن إلى درجة الكمال،



وتعمق لدى المؤمن التفكير الممتزج بالحس والحماسة والروح. وكانوا يعيشون في حقيقة دائمة أن هذه الدنيا تمثل لهم دار امتحان. وأصبحت قلوبهم عارفة بدفقات القدرة والعظمة الإلهية.

لذا رحلوا إلى الصين وسمرقند والأندلس لكي يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر. وأصبح ذلك المجتمع الجاهلي مجتمعًا من الذين يدركون الحقيقة ويعرفونها حق المعرفة. وتحولت الليالي عندهم نهارًا، وأصبح كل شتاء ربيعًا. وتطور تفكيرهم وبدؤوا التفكير العميق في كل ما حولهم مثل: خلق الإنسان من نطفة، وخلق الطائر من بيضة صغيرة، ونمو الشجرة من بذرة ميتة، وأمثال هذه الأشياء. ورتبوا حياتهم ونظموها على رضى الله تعالى. وبلغت الرحمة والشفقة والقدرة على إدراك الحق وأدائه الذروة.

وبالنسبة لهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم أيضًا كانت لحظات اللذة والفرح في الحياة هي الأوقات التي يوصلون فيها رسالة التوحيد إلى البشر كلهم.

وما أعجب الصحابي رضي الله عنه الذي بقي له من عمره ثلاث دقائق قبل أن يُعدم وهو يشكر لمن أمهله ثلاث دقائق قائلا:

"عندي ثلاث دقائق أبلغك فيها دعوة الله تعالى" قال هذا والغبطة تملأ قلبه رغم ما هو فيه.

والحاصل أن الصحابة الكرام ﭫ عاشوا بالقرآن ومع القرآن ونذروا حياتهم للقرآن، وأظهروا حماسة وتفانيًا لم يشهده التاريخ، وتعرضوا للتعذيب والضغط والظلم لكنهم لم يحيدوا أبدًا عن القيم التي يؤمنون بها. وقد تركوا أموالهم ومتاعهم، وهجروا أوطانهم لكي يستطيعوا أن يحيوا بالآيات التي أرسلها المولى ﻷ. وفي سبيل تحقيق ذلك الأمر ضحوا بكل شيء.

وكانت لديهم الرغبة والحماسة لتعلم القرآن والحياة بكل آية فيه. ولم يتركوه حتى في أشد الأوقات خطرًا وتهلكة. فهذا عَبّادُ بْنُ بِشْر ﭬ في أحد غزوات الرسول ﷺ:

فَنزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنْزِلًا فَقَالَ: **"مَنْ رَجُلٌ يَكْلَؤُنَا لَيْلَتَنَا هذِهِ"** فَانْتَدَبَ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ (عمار بن ياسر) وَرَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ (عباد بن بشر) فَقَالَا: "نَحْنُ يَا رَسُولَ اللّٰهِ" قَالَ: **"فَكُونُوا بِفَمِ الشِّعْبِ"** قَالَ وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شِعْبٍ مِنْ الْوَادِي فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى فَمِ الشِّعْبِ قَالَ الْأَنْصَارِيُّ

لِلْمُهَاجِرِيِّ: "أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَهُ أَوَّلَهُ أَوْ آخِرَهُ؟" قَالَ "اكْفِنِي أَوَّلَهُ" فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ فَنَامَ وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ يُصَلِّي وَأَتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيئَةُ الْقَوْمِ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَثَبَتَ قَائِمًا ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ فَقَالَ: "اجْلِسْ فَقَدْ أُوتِيتَ" فَوَثَبَ فَلَمَّا رَآهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَرَبَ فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنْ الدِّمَاءِ قَالَ: "سُبْحَانَ اللهِ أَلَا أَهْبَبْتَنِي!" قَالَ:

"كُنْتُ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا (وَهِيَ سُورَةُ الْكَهْفِ) فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا حَتَّى أُنْفِذَهَا فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمْيَ رَكَعْتُ فَأُرِيتُكَ وَايْمُ اللهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أُنْفِذَهَا"[43]

٤٣. انظر: أبو داود، الطهارة ٧٨/١٩٨؛ أحمد، جـ. ٣، ٣٤٤؛ البيهقي، دلائل النبوة ٣، ٤٥٩؛ ابن هشام، جـ. ٣، ٢١٩؛ الواقدي، جـ. ١، ٣٩٧.



وقد عاش الصحابة الكرام رضي الله عنهم حياة محورها القرآن الكريم، وكانوا يجدون لذة لا تدانيها لذة في كل ركن من أركان الدين. وبالنسبة لهم كانت كل آية تنزل عليهم كأنها مائدة نزلت من السماء. وقد بذلوا جهدهم كله لتلقي القرآن الكريم وجعلوه أجمل نموذج يمكن أن يعيشوا به. وما أعظم تلك اللوحة التي تظهر حبهم للقرآن وحماستهم له حينما كانت الصحابية ترضى بأن يقدم لها الصحابي ما يحفظه من القرآن ويعلمها إياه كمهر لها عند الزواج.[٤٤]

وكان الصحابة رضي الله عنهم يتهجدون بالليل، ويطلبون أورادهم وأذكارهم في السحر، ويؤثرون تلاوة القرآن على الفراش الدافئ. حتى إذا مر أحد بالقرب من منازلهم في ظلمة الليل كان يسمع ترنيمهم بالذكر وبالقرآن كأنه يسمع دوي النحل.

وكان الرسول ﷺ يعلمهم القرآن في أقسى الظروف، ومن ذلك ما يحكيه أنس رضي الله عنه:

---

٤٤ انظر: البخاري، النكاح، ٦، ٣٢، ٣٥؛ فضائل القرآن، ٢١، ٢٢؛ مسلم، النكاح، ٧٦.



أقبل أبو طلحة يوماً، فإذا النبي ﷺ قائم يقرئ أصحاب الصفة، على بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من الجوع.

كان شغلهم تفهم الكتاب وتعلمه، ونهمتهم الترنم بالخطاب وتردده. (أبو نعيم، الحلية جـ. ١، ٣٤٢)

وقد اتخذ الصحابة الكرام ﷺ من رسول **الله** ﷺ قدوة؛ لذا فقد امتلأت المدينة المنورة في النهاية بالعلماء والحُفاظ.

هكذا كان عصر السعادة قرنًا لا يشبهه قرن.

فيا ترى لو اجتمع الفلاسفة، وعلماء النفس، وعلماء الاجتماع، وعلماء التربية، وعلماء الإنسان في الدنيا كلها هل كانوا يستطيعون أن يكوِّنوا مجتمعًا صغيرًا يتحلى بهذه الخصال العالية كلها التي كانت لمجتمع عصر السعادة؟ والإجابة بالقطع هي: لا، وليس بمقدورهم أن يصلوا حتى إلى أدنى درجات ذلك المجتمع. فمثلًا كتاب **الفارابي** المُسمى "المدينة الفاضلة" والذي كان عبارة عن مشروع لمجتمع مثالي أسسه الفارابي في خياله قد ظل طعامًا شهيًا في أفواه السوس والأرضة فقط.

ترنمات حارة في حب رسول الله ﷺ

لقد كان رسول **الله** ﷺ هو منبع المحبة والرحمة الذي لا مثيل له. ذلك المنبع الذي حمل البشر إلى بَحر حب **الله**، لأن محبة رسول **الله** ﷺ من محبة **الله** عز وجل، وطاعة رسول **الله** ﷺ من طاعة **الله** عز وجل، وعصيان رسول **الله** ﷺ من عصيان **الله** عز وجل، وفى ذلك يقول **الله** عز وجل في قرآنه الكريم:

«قُلْ اِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّٰهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّٰهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (آل عمران، ٣١)

وفي كلمة التوحيد تأتي جملة "**محمد رسول الله**" بعد جملة "**لا إله إلا الله**". وتشكل كل كلمة توحيد وكل صلاة شريفة على النبي ﷺ رأس مال المحبة والقرب للحق تبارك وتعالى. وكل سعادة دنيوية وأخروية وكل فتوحات معنوية تتحقق برأس مال المحبة له. فالدنيا هي تجلٍّ **للمحبة الإلهية**،



والنور المحمدي يشكل جوهر هذا التجلي، والطريق الوحيد للوصول إلى الذات الإلهية يمر عبر محبة رسول الله ﷺ.

والواقع أن الجماليات كلها مثل: الروحانية في العبادة، والرقة في المعاملة، والعلو في الأخلاق، واللطف في القلب، والنور والحسن في السماوات، والفصاحة في الألسنة، والرقة في الإحساس، والعمق في التفكير هي لمحات انعكست على القلوب من محبة رسول الله ﷺ الذي هو عبارة عن نور الوجود.

وما أجمل قول مولانا جلال الدين الرومي عندما قال:

"تعال أيها القلب، فالعيد الحقيقي هو الوصول إلى حضرة محمد ﷺ، لأن نور الدنيا من نور جمال وجوده المبارك".

وفي هذا نجد أن الوسيلة الوحيدة التي لا يمكن تجاوزها لنيل رضى الحق ﷻ ومحبته هي اتباع سيرة رسول الله ﷺ النموذجية. بمعنى أن أي مؤمن لا يستطيع أن يكون **"إنسانًا كاملًا"** أي إنسانًا مثاليًا -وهو ما يهدف إليه الإسلام- ما لم يسر ويقتد على سنة رسول الله ﷺ وهديه في عبادته وسلوكه



ولن يبلغ الطمأنينةَ والسعادة الحقيقية الدينية. لأن الحق ﷻ قد عرض نموذج ومثال "**الإنسان الكامل**" الذي يهدف اليه الإسلام في شخص الرسول الكريم ﷺ وجعله رحمةً للعالمين، ونموذجًا للمؤمنين كلهم.

وفي تلك الحال فإن هذه الطاعة تكون من الأهمية بمكان حتى إن الله تعالى قد جعلها شرطًا لمحبة عباده فكيف هي تلك الطاعة؟

لا ريب أن تلك الحال العلوية تبدأ بحب رسول **الله** ﷺ من صميم القلب والحصول على نصيب من عالمه القلبي لأن ربنا ﷻ يقول في قرآنه الكريم في حق اتباع رسول **الله** ﷺ الذي هو "**الأسوة الحسنة**":

«وَمَا اٰتٰيكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ شَديدُ الْعِقَابِ» (الحشر، ٧)

ويقول عز من قائل:

«يَا اَيُّهَا الَّذينَ اٰمَنُوا اَطيعُوا اللّٰهَ وَاَطيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا اَعْمَالَكُمْ» (محمد، ٣٣)



ويقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّٰهَ وَالرَّسُولَ فَاُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ اَنْعَمَ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيّٖنَ وَالصِّدّٖيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحٖينَ وَحَسُنَ اُولٰئِكَ رَفٖيقًا﴾ (النساء، ٦٩)

إن القرآن الكريم الذي هو نبراس وهدى وكتاب للتعاليم الإلهية التي أنزلها الله ﷻ يعرض للأمة من عَالَم رسول الله القلبي. ومن المحقق أن أسرار القرآن الكريم تظهر وتنجلي عندما تلف القلب روحانية رسول الله ﷺ. فلو أننا تشرفنا مثل الصحابة الكرام ﭫ بالدخول إلى هذا العالم لاستطعنا أن نصل إلى سعادة أن نشاهد تجليات الجماليات الإلهية، وتجليات الأمر والنهي، والعلم والحكم التي في تلك الأسرار.

باختصار لو استطعنا أن نقرأ أو نتعلم الكلام الإلهي بشرحه وتجليه في عالم الرسول ﷺ القلبي، لأمكن لقلوبنا أن تكون فراشات تحلق حول الرسول الكريم ﷺ مثل عشاق النبي الذين كانوا في عصر السعادة، ولفهمنا كل كلمة وكل



أمر وحتى كل إيماءة لرسول **الله** ﷺ، وبلغنا مقام العشق والوجد والتسليم التي عبرت عنه تلك العبارة التي تقول:

"يا رسول الله فداك أبي وأمي ومالي وروحي"

إن وجود النبي ﷺ هو منبع الفيض والنور وملجأ المحبة للبشر، والعارفون يعرفون أن سبب وجود الكائنات هي المحبة الإلهية للنور المحمدي. ولهذا السبب فإن الكون جميعًا كان بمثابة هدية لحضرة النبي محمد ﷺ. والكائنات كلها قد خُلقت لشرف **النور المحمدي** وكحافظة له. كأنه دُرّة ولؤلؤة والعَالم صَدَفُها. لذا فقد استحقت تلك الشخصية أن يخاطبها الحق ﷻ قائلًا: **"حبيبي"**[٤٥]

فيالسعادة هؤلاء المؤمنين الذين أعطوا قلوبهم **لله** ورسوله ﷺ ويُكِنُّون له المحبة. تلك المحبة التي أمكنها أن تعلو عندهم فوق المحبات جميعها.

إن الاقتراب من الحقيقة المحمدية يمكن أن يتحقق بالعشق والمحبة أكثر من العقل.

---

٤٥. انظر: الترمذي، المناقب جـ. ١/ ٣٦١٦؛ الدرامي، المقدمة، ٨؛ أحمد، جـ. ٦/ ٢٤١؛ الهيثمى، جـ. ٩ / ٢٩.



وقد تفتحت سماوات ربيع الأول -التي تشرفت بمقدمه لهذا العالم- للمؤمنين رحمةً وغفرانًا.

وبحسب ما تذكره المصادر فإن السيدة **ثويبة** رضي الله عنها كانت واحدة من أمهات رسول **الله** ﷺ بالرضاعة، وهذه السيدة كانت جارية لأبي لهب عم رسول **الله** ﷺ وعدوه، وعندما أخبرت السيدة ثويبة أبا لهب ببشرى ميلاد ابن أخيه أعتق أبو لهب هذه الجارية بسبب العصبية القومية الخالصة. (الحلبي، جـ. ١، ١٣٨)

وحتى هذه الفرحة التي حدثت بسبب التعصب العرقي كانت كافية لتخفيف العذاب عن أبي لهب في أيام الاثنين من كل أسبوع.

ويحكي العباس رضي الله عنه هذه المسألة فيقول:

"مكثت حولًا بعد موت أبي لهب لا أراه في نوم ثم رأيته في شر حال فقال:

«ما لقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين» وذلك أن رسول **الله** ﷺ ولد يوم الاثنين وكانت ثويبة قد بشرته بمولده فقالت له: «أشعرت أن آمنة ولدت غلاما لأخيك عبد **الله**» فقال لها: «اذهبي فأنت حرة»" فنفعه



ذلك وهو في النار كما نفع أخاه أبا طالب ذبه عن رسول الله ﷺ فهو أهون أهل النار عذابا. (السهيلي، الروض الأنف، ١، ٢٧٣)

وفي رواية أخرى قال أبو لهب:

"لم ألق بعدكم خيرا غير أني سقيت في هذه بعتاقي ثويبة" وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.[٤٦]

ويقول ابن الجزري أيضًا:

"إذا كان عدو النبي أبو لهب يُخفَّف عنه العذاب في جهنم بسبب فرحه الذي أبداه بأحاسيس قومية يوم ميلاد النبي، فما الذي سيناله مؤمن من أنواع الكرم واللطف الإلهي إذا ما أظهر الاحترام بالليلة التي وُلد فيها الرسولﷺ، وفتح قلبه ومائدته لعشق فخر الكائنات الأبدي ﷺ! فيجب أن يُقام الكثير والكثير من الجلسات الروحية والمعنوية في الشهر الذي وُلد فيه الرسول ﷺ، كما يجب إقامة "الولائم" للأمة للاستفادة من روحانية هذا الشهر المبارك وتجديد الوجدان الروحي. كما

---

٤٦. ابن كثير، البداية، القاهرة، ١٩٩٣م، جـ. ٢، ٢٧٧ البيهقي، السنن الكبرى، ٧، ١٦٢؛ ابن سعد، جـ. ١ ١٠٨، ١٢٥.



يجب إسعاد القلوب الحزينة بقراءة وإقراء القرآن الكريم، والإحسان بكل أنواع الإحسان وإعطاء الصدقات للفقراء والأيتام وأبناء السبيل والغرباء وذوي الحاجة.

محبة الصحابة الكرام رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ

لقد أحب الصحابة رضي الله عنهم رسول الله ﷺ حبًا شديدًا لا يمكن بيان وتوضيح عمقه وقدره، وحب كهذا قد أمكن تحقيقه بمحبة وفيض إلهي فقط، ومحال أن يتحقق بغير ذلك.

وقد رُبط كل واحد من الصحابة برباط من الصداقة حول رسول الله ﷺ، كأنهم تيار متدفق من العشق. وأصبحوا نجوم سماء التعلق والارتباط به. وهكذا كان في داخل كل صحابي نداء دائم هو: "**هكذا كان يفعل رسول الله ﷺ**" ومن أجل أن ينالوا حظهم المطلق من اتباعه، كانوا يسيرون من الطريق الذي كان يسير فيه، ويشمون الورد الذي كان يشمه، ويتعطرون بالعطر الذي كان يتعطر به، ويقفون في المكان الذي كان يقف فيه.

والواقع أن مظاهر المحبة المتأججة والعشق الأسطوري الذي كان يشعر به الصحابة الكرام رضي الله عنهم تجاه رسول الله ﷺ لا تعد ولا تحصى وتتجلى ذلك في بعض الأمثلة المشهورة

ومنها ما تصف السيدة عائشة رضي الله عنها جبين رسول الله ﷺ المضيء فتقول:

لَو سَمِعَ أَهْلُ مصر أوصاف خَدِّهِ،

لَمَا بذلوا في سَوْمِ يُوسفَ من نَقْدِ.

لوائمُ زليخـــا لو رَأينَ جَبيـنَهُ،

لآثَرْنَ بِالقَطْعِ القلوبَ على الأيدِ.

فرسول الله ﷺ بشكل محقق عبد وبشر من ناحية الصورة، كما عبرت عنه كلمة الشهادة. لكن باعتبار سيرته هو "**سيد الرسل**"، وما أجمل ما قاله الأستاذ **عزيز محمود هدائي** الذي شاهد عالم الأسرار فقال:

هذا العالم عبارة عن مرآة فكل شيء فيه قائم بالحق

فالله يُرى دائمًا من مرآة محمـــد ﷺ

إن رسول الله ﷺ هو مركز تجلي المحبة الإلهية التي عَلَت وسَمَت بعد أن تكاملت المحبات المجازية في فطرة الإنسان وخلقه. ومن المحقق أن أي مؤمن عندما يشعر بالأحاسيس البديعة والرجفات الإلهية، وعندما تخلو روحه



من السمات والمظاهر الشهوانية كلها، فإن هذا يكون أول الطريق لأخذ نصيبه من محبته ومتابعته والتوحد معه وفي ذلك يقول **مولانا جلال الدين الرومي** (قدس سره):

"لقد خُلق عالَمان من أجل فؤاد وقلب[٤٧] واحد ففكر في معنى تلك العبارة «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»"

وفي هذا يتضح أن محبة رسول **الله** ﷺ هي مؤثر عظيم يعز البشر في العالمين الدنيا والآخرة، وعن طريق هذه المحبة نال الصحابة الكرام رضي الله عنهم الدرجات العلى التي لا يدانيها أحد، بعشق رسول **الله** ﷺ.

وإليك لوحة أخرى من محبة الصحابة الكرام رضي الله عنهم لرسول **الله** ﷺ والتي ليس لها نظير:

ففي أثناء الهجرة لقد خرج رسول الله ﷺ لينطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضي الله عنه فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له رسول الله ﷺ فقال:

"يا أبا بكر، مالك تمشي ساعة بين يدي وساعة خلفي؟"

فقال:

٤٧ فالقلب هو العضو والفؤاد هو الخاطر واللب هو الجوهر.



"يا رسول اللّٰه أذكر الطلب فأمشي خلفك ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك" فقال:

"يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني" قال:

"نعم والذي بعثك بالحق ما كانت لتكون من ملمة إلا أن تكون بي دونك" (الحاكم، المستدرك، ٣، ٧/ ٤٢٦٨)

وعندما وصلوا في النهاية إلى غار ثور قال الصديق رضي الله عنه لرسول اللّٰه ﷺ:

"يا رسول اللّٰه دعني فلأدخل قبلك فان كانت حية أو شيء كانت لي قبلك" فدخل أبو بكر فجعل يلتمس بيديه فكلما رأى جحرا جاء بثوبه فشقه ثم ألقمه الحجر حتى فعل ذلك بثوبه أجمع قال فبقي جحر فوضع عقبه عليه ثم أدخل رسول اللّٰه ﷺ. فلما أصبح قال له النبي ﷺ:

"فأين ثوبك يا أبا بكر؟" فأخبره بالذي صنع فرفع النبي ﷺ يديه إلى السماء ودعا له.[٤٨]

---

٤٨. انظر: ابن كثير، البداية، جـ. ٣، ٢٢٢ -٢٢٣؛ على القارئ، المرقات، بيروت، ١٩٩٢م، جـ. ١٠، ٣٨١؛ أبو نعيم، الحلية، جـ. ١، ص. ٣٣.



ومن ناحية أخرى ما أجمل القصة التي تظهر حب السيدة سميراء بنْت قَيْس رضي الله عنها لرسول **الله** ﷺ التي كانت قد فقدت خمسةً من أهلها شهداء في غزوةِ أُحد، ولديها وأباها وزوجها وأخاها، وكانت المدينة يوم أُحد قد ارتجت وضجت بالعويل والضجيج عندما سُمع أن محمدًا ﷺ قد قُتل وانقطعت الأصوات في المدينة، وارتفع الصراخ إلى العرش، وهرع الناس إلى الطرقات يتلمسون خبرًا من القادمين من الغزوةِ، وكانت السيدة الأنصارية التي فقدت خمسة من شهداء أُحد من ضمن هؤلاء الناس، ولم تكن قد حزنت عندما سمعت باستشهادهم جميعًا وإنما أخذت تسأل العائدين من الغزوة **"مَا فَعَلَ رَسُولُ اللّٰه"** فأجابها الصحابة الكرام رضي الله عنهم قائلين: "خَيْرًا، هو بحمد **الله** صالح على ما تحبين" فقالت السيدة سميراء رضي الله عنها: "أَرُونِيهِ أَنْظُر إلَيْهِ" فَأَشَارُوا لَهَا إلَيْهِ فَقَالَتْ:

"كُلّ مُصِيبَةٍ بَعْدَك يَا رَسُولَ الله جَلَلٌ" وَخَرَجَتْ تَسُوقُ بِابْنَيْهَا بَعِيرًا تَرُدّهُمَا إلَى الْمَدِينَةِ. (انظر: ابن هشام، ٣، ٥١؛ الواقدي، ج. ١، ٢٩٢؛ الهيثمى، ج. ٦، ١١٥)

ويروي **أنس بن مالك** رضي الله عنه فيقول:



"جاء رجل إلى رسول **الله** ﷺ فقال: «متى الساعة؟» فرد عليه الرسول الكريم ﷺ سائلًا إياه: «**وما أعددت للساعة؟**» فرد عليه الرجل قائلًا: «حب **الله** ورسوله» عند ذلك قال له رسول **الله** ﷺ: «**فإنك مع من أحببت**»

قال أنس:

"فما فرحنا بعد الإسلام فرحا أشد من قول النبي ﷺ «**فإنك مع من أحببت**» فأنا أحب **الله** ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم" (مسلم، البر، ١٦٣)

وما من شك فإن كل مؤمن لكي يدخل في تلك البُشرى التي بيّنها وذكرها رسول **الله** ﷺ يجب عليه أن يزين قلبه بعشق رسول **الله** ﷺ ومحبته ونوره والشوق إليه.

وكان حال الصحابة عند وفاة الرسول الأكرم ﷺ مثل حال الشموع التي احترقت من الحزن حتى ذابت، ففي ذلك اليوم احترقت القلوب بلهيب الحسرة في لحظة واحدة مع فراق الرسول ﷺ، وانقلب حال الصحابة رضي الله عنهم من حال إلى حال، فسيدنا **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه غاب عن الوعي، و**أبو بكر الصديق** رضي الله عنه بذل المستحيل لتهدئة وتسكين الصحابة رضي الله عنهم، لأن القلوب العاشقة التي لم تكن تتحمل أن يمر يوم دون أن



ترى رسول **الله** ﷺ، لم تستطع أن تتحمل حقيقة أنها لن تراه مرة أخرى أبدًا في هذه الدنيا الفانية. وهكذا رفع **عبد الله بن زيد** رضي الله عنه الذي لم يستطع تحمل هذا الفراق والرحيل يديه إلى السماء ودعا بقلب محزون متألم قائلًا:

"اللّٰهم أعمني فلا أرى شيئا بعد حبيبي حتى ألقى حبيبي ﷺ" قال هذا الدعاء من صميم قلبه وعيناه تفيض بالدموع فعَمِيَ مَكَانَهُ.[٤٩]

وكان **أبو بكر** رضي الله عنه عندما يذكر حديثًا لرسول **الله** ﷺ بعد وفاته وكلما تذكر رسول **الله** ﷺ يجهش بالبكاء وتخنقه العبرة وينقطع عن الحديث. ويروي أبو هريرة رضي الله عنه تلك الحال فيقول صعد أبو بكر رضي الله عنه المنبر ذات يوم فقال:

"قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر" ثم بكى، وكرر نفس الكلمة، وبكى مرة أخرى وكرر ذلك في المرة الثالثة، ولم يتمالك نفسه فبكى مرة ثالثة. (انظر: الترمذي، الدعوات، ١٠٥/٣٥٥٨؛ أحمد ج١، ٣)

---

٤٩. القرطبي، الجامع، بيروت، ١٩٨٥ جـ. ٥، ٢٧١.



وكان أبو بكر إلى جانب الرسول في حياته في كل وقت ورغم هذا كان دائمًا يشعر بالشوق إليه، أما بعد وفاة النبي ﷺ فقد اشتد به الشوق بسبب الفراق. وتقول **السيدة عائشة** رضي الله عنها تصف إحساس الصلة والحب الذي كان يشعر به أبوها تجاه رسول **الله** ﷺ فتقول:

"إن أبا بكر رضي الله عنه لما حضرته الوفاة قال: «أي يوم هذا؟» قالوا: «يوم الاثنين» قال:

«فإن مت من ليلتي فلا تنتظروا بي الغد فإن أحب الأيام والليالي إليّ أقربها من رسول الله ﷺ»" (أحمد، جـ. ١، ٨)

فَلَمْ يُتَوَفَّ حَتَّى أَمْسَى مِنْ لَيْلَةِ الثُّلَاثَاءِ وَدُفِنَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ. (االبخاري، الجنائز ٩٤، ٧٠)

وكان بعض الصحابة الكرام رضي الله عنهم بسبب عشقهم لرسول **الله** ﷺ ينظرون بغبطة إلى المرضى في مرضهم الأخير لأنهم سيلحقون بالرفيق الأعلى وبرسول **الله** ﷺ، وكانوا يرسلون مع هؤلاء المرضى السلام إلى سلطان القلوب سيدنا محمد ﷺ. فهذا **محمد بن المنكدر** رضي الله عنه عندما زار سيدنا جابر بن عبد **الله** رضي الله عنه في مرضه الأخير قال له ليسليه ويفرحه:

"يا جابر اقرأ على رسول اللّٰه ﷺ السلام" (ابن ماجه، الجنائز، ٤)

وكان الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين عشقوا رسولَ اللّٰه ﷺ يستشعرون الصفاء والسعادة عندما يسمعون ذكرى عن رسول اللّٰه ﷺ. فهذا هو **البراء بن عازب** رضي الله عنه يحكي عن رغبة أبيه في انتهاز كل فرصة ليسمع ذكرى عن رسول اللّٰه ﷺ فيقول:

"اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه مِنْ عَازِبٍ رَحْلًا بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَازِبٍ:

«مُرِ الْبَرَاءَ فَلْيَحْمِلْ إِلَيَّ رَحْلِي» فَقَالَ عَازِبٌ:

«لَا حَتَّى تُحَدِّثَنَا كَيْفَ صَنَعْتَ أَنْتَ وَرَسُولُ اللّٰه ﷺ حِينَ خَرَجْتُمَا مِنْ مَكَّةَ وَالْمُشْرِكُونَ يَطْلُبُونَكُمْ» قَالَ:

«ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ: «اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللّٰه» فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ .

ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي هَلْ أَرَى مِنْ الطَّلَبِ أَحَدًا فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: «لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلَامُ» قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ: «هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ» قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: «فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَنَا؟»[٥٠] قَالَ: «نَعَمْ» فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا مِنْ الْغُبَارِ ثُمَّ **أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ فَقَالَ هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالْأُخْرَى** فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ.

وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِدَاوَةً عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَوَافَقْتُهُ قَدْ

٥٠. كان من عُرف العرب وعادتهم ألّا يمنعوا أي مسافر من شرب ألبان أغنامهم وإبلهم. وكانوا ينبهون ذلك لرعاتهم ويشترطون لمن سيتولى رعي أغنامهم وحيواناتهم ألّا يمنعوا أحدا من المسافرين من شرب الحليب. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:
"ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة: رجل منع ابن السبيل فضل ماء عنده، ورجل حلف على سلعة بعد العصر يعنى كاذبًا، ورجل بايع إمامًا فإن أعطاه وفّى له وإن لم يعطه لم يف له" (أبو داود، البيوع، ٦٠/ ٣٤٧٤)



اسْتَيْقَظَ فَقُلْتُ: «اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللهِ» فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قُلْتُ: «قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللهِ» قَالَ: «بَلَى» فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللهِ فَقَالَ:

«لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللّٰهَ مَعَنَا» (التوبة، ٤٠)" (البخاري، أصحاب النبي، ٢ أحمد، جـ. ١، ٢)

وكان الصحابة رضي الله عنهم يحترمون النبي ﷺ ويعظمونه ويحبونه أشد الحب والاحترام حتى إن بعضهم **لَا يَجُزُّ نَاصِيَتَهُ وَلاَ يَفْرِقُهَا لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَسَحَ عَلَيْهَا**.(انظر: أبو داود، الصلاة ٢٨/ ٥٠١)

وما أجمل تلك الحادثة التي تظهر محبة زوجات الصحابة رضي الله عنهم لرسول الله ﷺ وكيف إنهن كن يعلّمن تلك المحبة لأولادهن. وكانت زوجات الصحابة رضي الله عنهم يعنفن أولادهن عندما لا يلتقون برسول الله ﷺ لفترة طويلة. وفي ذلك ينقل سيدنا **حذيفة بن اليمان** رضي الله عنه فيقول:

"سألتني أمي: «متى عهدك؟» تعني بالنبي ﷺ فقلت: «ما لي به عهد منذ كذا وكذا» فنالت مني فقلت لها: «دعيني آتي

النبي ﷺ فأصلي معه المغرب وأسأله أن يستغفر لي ولك» فأتيت النبي ﷺ فصليت معه المغرب فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال:

«**من هذا، حذيفة؟**» قلت «نعم» قال:

«**ما حاجتك، غفر الله لك ولأمك**»...'' (الترمذي، المناقب، ٣٠ - ٣٧٨١ أحمد، جـ. ٥، ٣٩١)

أما حال سيدنا **بلال**رضي الله عنه مؤذن الرسول ﷺ وبُلبل المسجد النبوي فكان أكثر من ذلك بكثير. فعندما رحل رسول **الله** ﷺ فكأنما قد قُطع لسانه ولم يعد يفتح فمه وضاقت نفسه بالمدينة. وأراد أبو بكررضي الله عنه في زمن خلافته أن يعيد تلك الذكريات العزيزة لأذان بلال في عهد النبي ﷺ وطلب منه عدة مرات أن يؤذن، ولكن بلال المتألم ذلك العاشق لرسول **الله** ﷺ اعتذر له قائلًا:

''**يا أبا بكر لم تعد لدي رغبة بعد رسول الله ﷺ أن أرفع الأذان فلا تجبرني واتركني لحال نفسي**'' ولكن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه طلب منه ذلك بإصرار ليذكِّر الأمة بتلك اللحظات الجميلة التي كانت على عهد الرسول الكريم ﷺ وقال له:

"هل تحرم الأمة من مؤذن الرسول كما حُرمتْ من رسول الله ﷺ"

وأمام هذا الإصرار لم يستطع بلال رضي الله عنه أن يرفض، وعلى الرغم من أنه صعد إلى المئذنة وهو مطأطئ الرأس دامع العينين ليؤذن لصلاة الفجر، إلا أن ذكريات الأيام السعيدة مع رسول الله ﷺ تداعت أمام عينيه وارتفع شهيقه الذي خنق صوته ولم يستطع أن يرفع الأذان فرجع، ولم يعزم عليه أبو بكر رضي الله عنه مرة أخرى.

ولم يستطع بلال رضي الله عنه أن يبقى في المدينة أكثر من ذلك لأن المدينة كانت مملوءة بالذكريات العزيزة عليه مع رسول الله ﷺ فبعد صلاة الصبح خرج في الحال وذهب إلى دمشق.

واشترك بلال رضي الله عنه في معارك عديدة طلبًا للشهادة ورغبةً منه في أن يلحق برسول الله ﷺ ولكن في كل مرة كان يعود سالمًا بقضاء الله وقدره. ومرت سنوات على هذا المنوال، حتى الوباء الذي اجتاح دمشق ومات فيه خمسة وعشرون ألف فرد قدر الله تعالى أن ينجو بلال رضي الله عنه منه، ولكنه كان يعيش وقلبه يتحرق شوقًا للقاء رسول الله ﷺ.

وذات يوم رأى رسول **الله** ﷺ في المنام فقال له الرسول الكريم ﷺ:

"ما هذه الجفوة يا بلال؟ أما آن لك أن تزورني؟" فانتبه بلال حزينًا، وركب راحلته، وقصد المدينة، فأتى قبر النبي ﷺ فجعل يبكي عنده ويمرغ وجهه عليه، فأقبل الحسن والحسين رضي الله عنهما ريحانتا الجنة وحفيدا رسول **الله** ﷺ فجعل يضمهما ويقبلهما، فقالا له:

"يا بلال! نشتهي أن نسمع أذانك"

ففعل، وعلا السطح ووقف، فلما أن قال: "**الله** أكبر، **الله** أكبر" ارتجت المدينة، فلما أن قال: "أشهد أن لا إله إلا **الله**" ازدادت رجتها، فلما قال: "أشهد أن محمدا رسول **الله**"، خرجت العواتق من خدورهن وقالوا: "بعث رسول **الله** ﷺ" فما رؤي يومٌ أكثر باكيا ولا باكية بالمدينة بعد رسول **الله** ﷺ من ذلك اليوم.[٥١]

---

٥١. انظر: ابن الأثير، أسد الغابة، جـ. ١، ٢٤٤، ٢٤٥؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، ١٩٨٦م، ١ جـ. ٣٥٧، ٣٥٨.



وقد توفي ذلك الصحابي العاشق لرسول الله ﷺ عن عمر يناهز الستين عامًا في دمشق. وفي أثناء موته كان يردد فرحًا مسرورًا:

"غدًا نلقى الأحبة محمدا وحزبه"

وكانت زوجته تقول وهي تبكي: **"واويلاه!"** أما هو المملوء قلبه بالشوق للقاء الرسول ﷺ وصحبه فكان يردد فرحًا: **"وافرحاه!"** (الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج. ١، ٣٥٩)

ونحن نرى هذه المحبة الشديدة عند الصحابة الكرام رضي الله عنهم واضحةً جليةً في رواية الحديث الشريف. فعندما كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يروون حديثًا شريفًا لرسول الله ﷺ كانت تصفر وجوههم وترتعد فرائصهم خشية أن يقولوا على رسول الله ﷺ شيئًا لم يقله. فمثلًا كانت تأخذ **عبد الله بن مسعود** رضي الله عنه رعدة شديدة عندما كان يقول: "قال رسول الله ﷺ..." وكثير من الصحابة كانوا يقولون بعد رواية الحديث: "أو كما قال، ومثلما قال، أو نحو ذلك أو قريب من ذلك" وذلك مخافة الخطأ البشري. (ابن ماجة، المقدمة، ٣)



ولأن رسول **الله** ﷺ كان رسولًا عظيمًا بكى لفراقه جذع النخلة الذي كان يقف عليه ويخطب في الناس. وتدفق الماء من بين يديه لتشرب أمته. وكان شفاء الأمراض من فضلة الماء التي تتبقى منه. وسمع الحاضرون معه على الطعام تسبيح اللقمة بين يديه.[٥٢] وما زالت شعرات من لحيته الشريفة وشعره الشريف تُحتفظ في منابر المساجد باسم **"اللحية الشريفة"** بكل احترام ووقار تبركا به ﷺ وهي بمثابة رحمة للمؤمنين.

هـو إمام الحشر يوم القيامة،
وهـو شفيع المذنبين،
وهـو الذي يتألم ويشعر بآلام أمته قائلًا: أمتي أمتي...

و لـواء الحمد في يديـه،
وجميع الأنبـياء يستظلون بظله،
وأول يد تفتح أبواب الجنة يده ﷺ.

وما أجمل ما يترنم به **الشيخ غالب** وهو يصف هذه الحال قائلًا:

---

٥٢. لهذه المعجزات وغيرها انظر: البخاري، المناقب، ٢٥.



تُنشد وتُتلى خطبك على منابر عالم البقاء،

وشرعك وشفاعتك وكلامك جار ونافذ في يوم الدين،

ويستقبل قدومك الشريف من في العرش بكل احتفال وسرور،

وتُذكر أسماؤك الشريفة دائما في الأرض والسماء،

أنت أحمد، أنت محمود وأنت محمد عليك الصلاة والسلام يا سيدي!

أنت السلطان المؤيد لنا من الحق عز وجل يا سيدي!

تيار المحبة المتدفق على الرسول ﷺ بعد الصحابة الكرام رضي الله عنهم

لقد استمرت قافلة العشق والمحبة تلك لمن كان رحمةً للخلق أجمعين لرسول رب العالمين ﷺ تتدفق ثائرة متجددة غزيرة نحو بحر الوصل، لأن رأس مال السعادة والسلامة في الدنيا والآخرة هو محبته.

ويوضح رسول الله ﷺ في حديثه الشريف أن العاشقين له ولمحبته سيستمرون حتى يوم القيامة فيقول:

"من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماله" (مسلم، الجنة، ١٢؛ الحاكم، جـ. ٤، ٦٩٩١/٩٥)

فيا رب اجعلنا نحن العاجزين فيمن يشملهم هذا الحديث. آمين.

ويوضح ذلك المثال بجلاء أن محبة رسول **الله** ﷺ عند محبيه وعشاقه كانت تتجاوز كل حدود الآلام والمحن والمصائب الفانية، فينقل لنا **عبد الله بن المبارك** فيقول:

"كنت عند **الإمام مالك**، وكان يذكر لنا من أحاديث رسول **الله** ﷺ، وفي أثناء القراءة بانت على وجهه علامات الاضطراب والألم، فتغير لونه واصفر وجهه، ولكنه لم يترك حديث الرسول ﷺ وأتم الدرس. وعندما تفرق الناس قلت له:

«يا أبا عبد **الله** رأيت عليك اليوم أمرًا عجيبًا» فقال لي:

«نعم جاءني عقرب أثناء الدرس ولدغني ست عشرة مرة، فصبرت هذا كله إجلالا لحديث المصطفى ﷺ»[٥٣]

---

٥٣. المناوي، فيض القدير، بيروت، ١٩٩٤م، جـ. ٣، ٣٣٣؛ السيوطي، مفتاح الجنة، ص. ٥٢.

وكان الإمام مالك لا يركب دابته في المدينة المنورة احترامًا للتراب الذي كان يمشي عليه رسول **الله** ﷺ. وعندما جاءه سائل يسأله عن الحديث الشريف قام فتوضأ ولف العمامة وتعطر وجلس على مكان عالٍ، وبعد ذلك أجابه. وكان يجهز نفسه لروحانية رسول **الله** ﷺ. وكان يعتني أشد الاعتناء ويتأدب بشدة عندما ينقل كلام رسول **الله** ﷺ المبارك. وعندما كان يجلس في الروضة الشريفة كان يتحدث بصوت خفيض، وعندما تحدث الخليفة **أبو جعفر المنصور** بصوت مرتفع قال له:

"أيها الخليفة! اخفض صوتك في هذا المقام، فالله تعالى نهى عن التحدث بصوت مرتفع في مقام رسول الله ﷺ، وجاء هذا التحذير والنهي للصحابة الكرام الذين هم أكثر منك فضلًا وكرامةً"

ومرة أخرى يعفو **الإمام مالك** عن والي المدينة الذي ظلمه وقال له:

"إني أستحي أن أخاصم في المحشر واحدًا من أحفاد رسول الله ﷺ"

وقد ترك **السيد أحمد يَسَوِي** أحد كبار الأئمة العاشقين لرسول **الله** ﷺ التجول والسياحة على وجه الأرض بعدما بلغ الثالثة والستين بسبب عشقه ومحبته لرسول **الله** ﷺ حيث توفي النبي ﷺ في سن الثالثة والستين. واستمر في حياة الإرشاد في مكان يشبه القبر طوال عشر سنوات حتى مات.

و**الإمام النووي** عالم الحديث والمجتهد الكبير لم يتناول البطيخ طوال عمره بسبب عدم معرفته كيف كان رسول **الله** ﷺ يأكل البطيخ. وهو عندما فعل هذا الأمر كان يفعله بدافع الرغبة في الإحاطة بصفحات حياة النبي ﷺ وخشية أن يأتي أمرًا لم يفعله رسول **الله** ﷺ.

أما **السلطان سليم الأول العثماني** الذي كان يحكم العالم فقد وصل نفسه بحقيقة رسول **الله** ﷺ، ورأى أن أي ولي فوق كل مقادير الدنيا ومقاييسها فقال:

أن يكون الإنسان سلطانًا للعَالم عبارة عن جدال وكفاح فارغ

وأن يكون الإنسان تابعا ومحبا لمرشد حقيقي هو أعلى وأفضل وأغلى من كل شيء.



وهو بهذه الأبيات يبين حسرته وشوقه وأهمية أن يدنو ويقترب من باب الله تعالى ورسوله.

وقديمًا كانت تُنقش على الأختام بيتٌ من الشعر أو الحكمة لأحد الحكماء، وقد نقشت السيدة "بَزْمِ عَالَمْ" والدة إحدى سلاطين آل عثمان على خاتمها عبارة توضح أن الله تعالى قد خلق هذا العالم إكرامًا للنور المحمدي وحرمة له وعليه تقول:

لقد ظهر محمد ﷺ للوجود من المحبة الإلهية له،
ولا خير في محبة تخلو من محمد ﷺ،
ومن ظهور وتشريف الحبيب لهذا العالم وصلت بَزْمِ عَالَمْ إلى ربها.

أما فضولي **البغدادي** الشاعر الكبير فيعبر عن هذه الحرقة والوجد في قصيدته الشهيرة بـ"المـاء" فيقول:

يا عين لا تنثري دمع العين على اللهيب في قلبي.

فلن يستطيع الماء أن يطفئ ذلك اللهيب المتقد من نار الحب.



لا أدري لونَ السماء، هل قُبّة السماء من لون الماء أم أن الدموع التي نزلت وصُبّت من عيني هي التي جعلته محيطا.

فليوجه البستاني كل الماء إلى الحديقة حتى يخرب البستان ولا يُتْعِبْ نفسه،

لأنه لو سقى ألف حديقة لما أنتجت هذه الحدائق وردة تشبه وجهك يا رسول الله ﷺ.

يا أحبائي لو مت قبل أن أقبل يديه المباركتين ﷺ،

فاصنعوا من تراب قبري كوبا فقدموا به ماء إلى الحبيب ﷺ وبذا أكون قد قبلت يديه الشريفتين.

فالمياه تجري وتسعى بدون توقف طوال الأعمار لتقبل غبار رجليك المباركتين،

فالماء من ولعه وولهه ووجده وحرقته إليك يا رسول الله ﷺ يجري بدون وعي ضاربا رأسه من حَجَرٍ إلى آخر ومن صخرة إلى أخرى.



ويقول **سليمان شلبي** أيضًا معبرًا عن أن الشمس كانت تحلق حول رسول **الله** ﷺ كالفراشة التي تحوم حول النور فيقول: **"فهو النور الذي تحلق الشمس حوله"**

أما السلطان العثماني **أحمد خان** فقد رسم فوق عمامته قدم رسول **الله** ﷺ الشريفة ساعيًا لينال الفيض من تذكيره إياه ونظم في ذلك أشعاراً تقول:

يا ليتني كنت أحمل فوق رأسي مثل ما أحمل تاجي دائمًا،

ذلك الأثر أثر قدم رسول الله ﷺ المبارك الذي هو تاج الرسل،

فصاحب أثر القدم هو وردة حديقة النبوة،

يا أحمد امش وعَفِّرْ بوجهك لقدم ذلك "الورد" ﷺ.

وقد عبر الأستاذ **عزيز محمود هدائي** عن هذه المحبة فقال:

قدومك رحمة وذوق وصفاء ولطف يا رسول الله،

ظهورك هو دواء لمرض العشاق يا رسول الله،



فاشفع لهدائي ظاهرًا وباطنًا،

فهو سائل بائس متضرع قد تمسك بعتبة بابك يا رسول الله.

أما **الشاعر نابي** فعندما اقتربت القافلة من المدينة المنورة في رحلة الحج، تأثر بشدة ولهف لأن قدم أحد الباشوات امتدت سهوًا نحو الروضة الشريفة، فكتب عدة أبيات وهو في حال التأثر يعبر فيها عن تعظيمه لرسول **الله** ﷺ فقال:

احذر أن تسيء الأدب فهذا مقام حبيب الله،
هذا موضع ومنظر عين الله ومقام المصطفى ﷺ،
يا نابي ادخل إلى هذه الروضة بشرط مراعاة الأدب.
فهذا مطاف المقدسين وموضع تقبيل الأنبياء.

وأمام هذا الاشتياق الخالص المتدفق من القلب فإن مؤذني روضة رسول **الله** ﷺ كانوا يتلون هذا النعت والوصف للنبي ﷺ في وقت صلاة الصبح. وهذا التوجه اللطيف لرسول العُرُوبَة والإنسانية محمد بن عبد **الله** ﷺ كان يؤثر كثيرا في الشاعر نابي فيدخل إلى الروضة بعيون باكية.



أما **السيد محمد أسعد** أحد المشايخ الكبار في العصور المتأخرة فقد عبر أجمل تعبير عن الحرقة والتألم بلهيب العشق الذي يشعر به تجاه رسول **الله** ﷺ فقال:

الربيع من تجلي جمالك يا حبيبي تحول نارًا،

الوردة نار والبلبل نار والسُنبل نار والتراب والشوك نار.

شعاع وجهك المنير كالشمس هو الذي أحرق العشاق جميعهم،

فاللسان نار والصدر نار حتى العينان اللتان تبكيان من حبك نار.

فهل يمكن على الرغم من كل هذه النيران المحيطة أن يُغسّل شهيد الحب؟!

فالجسد نار والكفن نار حتى ماء غسل الشهيد المعطر نار.

وما أجمل الأشعار التي كتبها أحد شعراء العصر الحديث **يامان دده**، والذي كان في الأصل مسيحيًا، إلا أنه كان له حظ وأدرك الحقيقة المحمدية، وتحول إلى مؤمن بكّاء وعاشق متحرق من عشاق النبي ﷺ وأخذ يقول:

لو عطشت كثيرا وسَلَّمْتُ الرُّوحَ في الصحارى المحرقة ما شعرت بالألم،

براكين نار تحترق في صدري حتى ولو صبت علي المحيطات ما شعرت بالبلّ والندى،

لو أمطرت السماء لهبا ومصصت ذلك اللهيب لما شعرت به،

أسعدني بجمالك فقد احترقت يا رسول الله.

ما أجمل السعادةَ بأن يغمض الإنسان عينه بحبك ويبذل الروح في سبيلك،

ألا يسمح لي بأن أسلم وأبذل روحي لدى عتبتك يا مليكي؟!

سيكون من السهل جدا أن أسلم روحي وهي تتأوه بالوجد والمحبة إليك،

أسعدني بجمالك فقد احترقت يا رسول الله.

اطرقت رأسي وأحنيت رقبتي، أنا معذب، فإن دواء علتي لديك،



جفت واحترقت شفتاي من النار، وهي تجول بذكراك لدى قدميك،

أسعد هذا القطمير متى شاءت وارادت فؤادك،

أسعدني بجمالك فقد احترقت يا رسول الله.

وما أجمل تلك الأبيات التي عبر فيها **كمال أديب كوركجو أوغلى** عن شوق وحماسة من كان في العالم السماوي بسبب عروج رسول **الله** ﷺ إلى السماء يوم الإسراء والمعراج فقال:

فلأن السماء قد تشرفت برؤية وجهه الكريم ليلة المعراج،

فَخرّت السماء ساجدة على الأرض سجدة شكر.

وجبريل (روح القدس) وهو يرتهص بكل لهف مرتديًا ملابس الإحرام كل ليلة،

لينزل ضيفًا على الحرم والمقام المقدس مدينة رسول الله ﷺ.



لتأوه من رأى نور وجهه المورد قائلا يا ليتني قد رأيته مرة أخرى وقد طار عقله حيرة وولهًا وتعجبًا،

ولَبُهِتَ من جمال وجهه وصاح.. الله الله!

وأصبحت شخصيات الصحابة شخصيات متميزة جدا للإنسانية كلها حيث إنّهم تحولوا إلى نجوم بارزة في العَالم بسبب اتخاذهم شخصية الرسول قدوة لهم والذين اتبعوه في كل شيء ونالوا السعادة الأبدية والحضور. وقد اكتسب الصحابة الكرام رضي الله عنهم والصالحون وأرباب الحق القِيَمَ والفضائلَ والشرف بقدر ما أمكنهم من التقرب إلى فخر الكائنات الأبدي محمد ﷺ.

فكم لدينا من النفحات القلبية التي كانت لعبد الله بن زيد رضي الله عنه وبلال الحبشي رضي الله عنه، والإمام النووي، والسيد أحمد يسوي وأمثالهم. لذلك يجب علينا أن نقيس مستوانا في حب رسول الله ﷺ، ونحاسب أنفسنا إلى أي درجة نليق بأن نكون من أمة محمد ﷺ. كما يجب أن نطعم أرواحنا بيقظة وإحياء معنوي كل ذلك في إطار من تجلي تلك المحبة التي تدفقت منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم.



والواقع أن أحوال عظماء الإسلام التي ذُكرت هنا هي بالضبط مقاييس تطاول قدر وحجم الشخصيات التي هي بمثابة النجوم. وإن الذي يجعلهم نجوما في سماوات قلوب المؤمنين الذين أتوا من بعدهم حتى يوم القيامة هو شدة العشق والشوق والارتباط الذي يشعرون به تجاه رسول الله ﷺ.

ونحن نعلم أن العشق والمحبة مثل خط يصل بين قلبين. ولكي تصبح مؤمنًا جميلًا فالشرط هو أن تُكسب القلب هذا الاستعداد. والأزمات التي تعيشها الإنسانية اليوم قد جاءت بسبب انعدام هذا الاستعداد القلبي. ولهذا السبب صارت قيم كثيرة هباءً منثورًا وتمزقت في شراك الشهوة. وعندما تكون التوجهات والتيارات كلها شهوانية ودنيوية دائمًا، فعندها لا يستطيع أي شخص أن يجد سبيلًا وطريقًا إلى السمو الروحي.

لا يمكن للإنسان أن يترقى من العشق المجازي إلى العشق الحقيقي كما لا يمكن لقيس الملقب بـ"المجنون" أن يصل إلى المولى في رحلته التي بدأت من ليلى إلا بتمرين القلب وترويضه في سبيل اكتساب ملكة للمحبة الحقيقية.

فالإنسانية اليوم بحاجة ماسة إلى هذه المحبة. وسبب كل الجرائم والآثام والفظاظات فقدان هذه المحبة.

إن كبر وضخامة الحب الحقيقي تُقاس بالتضحيات والمخاطر التي تتم في سبيل المحبوب الذي نتمناه. لأن من يحب بشدة يضحِّي بروحه في سبيل من يحب، ولا يكون في شعوره أنه قام بأي تضحية أصلا، بل يشعر بأنه أدى ما عليه من دين. ولكن الأشخاص الذين لم يعرفوا العشق الحقيقي، ولم يكن لهم نصيب من ذلك العشق؛ لم يتأهلوا بالشكل المطلوب للوصول إلى الكمال، وخسروا قلوبهم واستهلكوها تحت سطوة الشهـوة.

وحمل الأمانة التي أبت الجبال أن تحملها هو في الأساس امتياز إلهي قُدم للإنسان. وشرط تحقق هذا الامتياز والهبة بالمعنى الحقيقي هو القدرة على الوصول إلى العشق الحقيقي. لأن هذا التصدع والصراع الذي في روح الإنسان يذوب وينتهي فقط في ذلك العشق الحقيقي. والإنسان الكامل يطهر روحه أولًا بأول من الميول الحيوانية بانعكاسات الفيض التي يأخذها من شخصية نموذجية،



ويحول قلبه إلى حديقة غناء تشبه الجنان تُفتح فيها نوافذ القلب على المناظر الإلهية.

يقول ربنا في كتابه الكريم:

«وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي» (الحجر، ٢٩)

أي إن الله تبارك وتعالى يذكّر الإنسان بجوهره العلوي الذي أعطاه إياه. فلو استطاع هذا الجوهر وتلك البشرية أن توصل المؤمن إلى الكمال نتيجة العشق والمحبة، فعندها يبدأ القلب قطع المراحل والمنازل نحو عالم الأسرار الإلهية. وبهذا تظهر أسرار ما يسمى بحقائق الأشياء والإنسان والكون، ويكون العبد مظهرًا لتجليات القلب السليم.

وعندما يصل العبد إلى هذا النضج وهذا الكمال، يبدأ في البحث والتنقيب عن حُجب الغفلة بينه وبين الله تعالى، ويكون له نصيب من سر **"الموت قبل الموت"** ويسقط من عينه جمال الدنيا وحبها الفاني، وكل عابر زائل ويخرجها من قلبه. وهكذا تنال الروح لذة لا يمكن وصفها في القرب من الخالق ﷻ.



أما الذين لم يتذوّقوا طعم الحب الحقيقي فَلَمْ يقدروا كسر إطار الميول الحيوانية الموجودة في الإنسان -ونَقْصدُ بها هوى النفس- ولم يستطيعوا أن يتقدموا خطوة إلى مستوى الملائكة. وقلب الذي لم يعرف الحب -أي الحب العرفاني- هو مثل الأرض الخَرِبَة. المعرفة في المحبة. وأصل المحبة المعرفة. لأن المحبة هي سبب الوجود.

إن الرحمة الإلهية التي خلصت الإنسانية من حضيضها ودناءتها وحملتها إلى السعادة كانت هو رسول **الله** ﷺ، الذي قدم للإنسانية الأسوة الحسنة. وطريق السعادة الحقيقية التي تتحقق بتعلم الحب الحقيقي والفناء فيه ﷺ واتباع هديه والسير على نهج محبته.

لأن رسول **الله** ﷺ هو قرة عين الكائنات كلها وسبب تكوّن الوجود وجوهره. وهو لطف عال من الحق عزّ وجلّ. وهو المرشد الموصل بين العبد وبين الحق تبارك وتعالى. وهو عندما أفنى بدنه في مقام العبودية بأحواله ﷺ العلوية التي لا يمكن التعبير عنها أو بيانها، فإنه ﷺ قد أصبح نموذجًا علويًا لنا في عبودية الحق عزّ وجلّ.



باختصار فإنه ﷺ كان رحمة وعشقًا شملت العوالم كلها. والقلوب العاشقة التي سلمت له ستحترق شوقًا لمحبته دائمًا في هذا العالم، وستتجرع كل لحظة كأس شوق الوصول والاتصال العلوي به.

وسوف تظهر محبته كلما زادت بالتدريج حرقة القلب مع تلك الصيحة، وذلك التأوه:

"أسعدني بجمالك فقد احترقت يا رسول اللّٰه"

وهكذا كان العشق الذي حول السادة **بهاء الدين النقشبندي**، و**يونس أَمْرَه** الشاعر الرباني الشهير، و**جلال الدين الرومي** نجومًا في سماء الحقيقة المعنوية. وبهذا العشق تقدم مولانا جلال الدين الرومي خطوة نحو دنيا السعادة الأبدية والحقيقية. وسعادته كانت الوسيلة إلى **"القادر المطلق"** الأبدي الخالد سبحانه وتعالى. فقد تجرد هؤلاء السادة من أسر وقيد الجسد الفاني، وقطعوا المسافات نحو الخلود والأبدية، وهم كانوا يسعدون فقط بالخلود والأبدية.

فكم من الممكن أن يشعر الإنسان بالسعادة الحقيقية مع الذين يَفْنَوْنَ ويموتون! فطريق السعادة الأبدية هي أن تكون



محبتك وعشقك للذي يستحق ذلك الحب. فمثلًا تلك الكلمات **لمولانا جلال الدين الرومي** والتي يعرض فيها منبع سعادته في هذا المجال فيقول:

"أنا عبد القرآن ما دامت تدب فيّ الروح، وأنا تراب أقدام سيدنا محمد ﷺ، ولو أن أحدهم سيذكر من كلامي أصغر شيء سوى هذا، فلا علاقة لي بهذا الشخص وبكلامه"

إن معنى أن تكون تراب أقدام رسول الله ﷺ وأن تضحي بنفسك في طريقه هي أن تظل عمرك بأكمله تابعًا له ولسنته في كل أمر، وأن تحيا مرتبطًا دائمًا بعشقه.

بالإضافة إلى ذلك فإن الطريق الأخرى التي تزيد من استفادتنا من محبة الرسول ﷺ وتقوية رابطتنا القلبية معه هي قراءة الصلوات الشريفة عليه على أن يتخذه الإنسان حِزْبًا لنفسه وهذه هي طريقة الارتداء والانسجام مع قوام نور الوجود المحمدي ﷺ بالطريق التي تليق به.

الواجب اكتسابه من أجل اتباع نور الوجود محمد ﷺ هو التدثر بروحانيته، وتحويل الصلوات الشريفة عليه إلى



ورد يومي. وذلك لأن تلك الصلوات تدعم وتقوى ارتباطنا القلبي معه، وتضيء قلوبنا بمحبة رسول الله ﷺ.



الصلوات والتسليمات الشريفة على النبي ﷺ

لقد أقسم المولى ﷻ في القرآن الكريم بحياة النبي ﷺ، وذكر اسمه المعظم مع اسم الرسول ﷺ. واشترط أن يؤمن العبد بنبوته حتى يكون عبدًا مؤمنًا مسلمًا، ولم يرض أن يرفع أحد صوته في حضرة النبي ﷺ. ولم يرد أن يذكر اسمه المبارك مثل سائر الأسماء. علاوة على ذلك ذكر الحق ﷻ أنه يصلي على النبي هو وملائكته، وأمر أمته أن تصلي عليه وتسلم تسليمًا كثيرًا فقال ﷻ في كتابه العزيز:

«اِنَّ اللّٰهَ وَمَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الأحزاب، ٥٦)

ويروي الصحابي أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رضي الله عنه فيقول:

كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا ذَهَبَ ثُلُثَا اللَّيْلِ قَامَ فَقَالَ:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللّٰهَ، اذْكُرُوا اللّٰهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ" قَالَ أُبَيٌّ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّٰهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي؟ فَقَالَ: **"مَا شِئْتَ"** قَالَ: قُلْتُ الرُّبُعَ. قَالَ: **"مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"** قُلْتُ: النِّصْفَ. قَالَ: **"مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"** قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ. قَالَ: **"مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ"** قُلْتُ:

أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا. قَالَ:

"إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ" (الترمذي، القيامة ٢٣/٢٤٥٧)

وعلى هذا النحو فقد جعل عاشقو النبي ﷺ من الصلاة والسلام عليه أورادًا على ألسنتهم. لأن الصلاة والسلام هي الوسيلة لزيادة محبة الرسول ﷺ في قلوب المؤمنين. والواقع أن اتباع الرسول ﷺ على الوجه الذي يليق به، والاستفادة من كونه ﷺ الأسوة الحسنة؛ يمكن أن يتحقق بلا شك من فهم

وإدراك حقيقة القرآن والسنة. وهذا فقط يتحقق بالتقرب إلى الأعماق القلبية والأخلاقية النموذجية لسيدنا محمد ﷺ.

ولم يستطع أحد من الفانين أن يصف الوصف الحقيقي لرسول **الله** ﷺ. ولم يستطع أحد أن يفهم ويدرك فطرته وأخلاقه العالية بالشكل اللائق. فالعلماء والمفكرون وسلاطين القلوب وجبريل عليه السلام قد عرفوا العزة والعظمة في أن يتبعوا نهجه وسبيله والنعمةَ في أن يكونوا سائلين على بابه.

ومن ناحية أخرى فإن الدعاء طبقًا للآداب الإسلامية يبدأ بحمد **الله** والصلاة على الرسول ﷺ. ومرة أخرى ينتهي الدعاء بهما. لأن هناك عقيدة أن الدعاء والتضرع إلى الحق عز وجل بالصلاة على النبي ﷺ لا يمكن أن يُرد أو يُرفض. لهذا فإن تزيين بداية ونهاية أدعيتنا بالصلاة والسلام على النبي ﷺ نابعة من هذه الحقيقة، يعني أن تدعيم الدعاء بهذه الصلوات الشريفة بحيث يكون من المأمول قبوله. ويقول سيدنا **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه:

"إن الدعاء مَوْقُوفٌ بَيْنَ السَّمَاءِ والأرض لاَ يَصْعَدُ مِنْهُ شَيْءٌ حَتَّى تُصَلِّيَ عَلَى نَبِيِّكَ ﷺ" (الترمذي، الوتر ٢١ / ٤٨٦)



وذات يوم سمع النبي ﷺ رجلا يدعو في صلاته فلم يصل على النبي ﷺ فقال النبي ﷺ: **"عجل هذا"** ثم دعاه فقال له ولغيره:

"إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد الله والثناء عليه ثم ليصل على النبي ﷺ ثم ليدع بعد بما يشاء" (الترمذي، الدعوات ٦٤ / ٣٤٧٧)

ونُقل عن ابن عباس رضي الله عنهما روايةٌ عن أهمية التوسل برسول الله ﷺ، حيث قال:

كانت يهود خيبر تقاتل غطفان فلما التقوا هُزمت يهود، فعادت يهود بهذا الدعاء وقالوا:

"إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم" قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بُعث النبي ﷺ كفروا، فأنزل الله تعالى فيهم قوله:

«وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» أي بك يا محمد، إلى قوله تعالى: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا

كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقرة، ٨٩. القرطبي، ج.-٢، ٢٧؛ الواحدى، ص. ٣١)

ويخاطب الحق ﷻ رسوله الكريم ﷺ في كتابه العزيز قائلًا:

«وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَاَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّٰهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» (الأنفال، ٣٣)

وقد ورد هذا البيان الإلهي في حق المشركين، وهكذا فإذا كان للمشركين كرامة وتميز بسبب قربهم المادي من رسول الله ﷺ، فإن ما يمكن أن يناله المؤمنون من شتى أنواع النعم الإلهية فوق التصور والتخيل. فضلًا عن ذلك فإن هؤلاء المؤمنين مع كونهم يؤمنون بالمكانة العظيمة لرسول الله ﷺ، فإن المؤمنين يَحْظَوْنَ بنصيب أوفر من محبة رسول الله ﷺ التي تشكل جوهر ذلك الإيمان. وهنا تبقى الكلمة قاصرة عن التعبير.

حقًا إن قلب المؤمن لو نال أي مرتبة في حب رسول الله ﷺ، فإن هذا القدر يُعلي مقامه بالآخرة ويزيد في سعادته وسروره الذي يناله في الدنيا.



ولهذا كله احذر أن تنسى الصلاة والسلام على النبي ﷺ، فأنت محتاج إلى شفاعته والتوسل به يوم الفزع الأكبر يوم القيامة.





القسم الرابع

- أكبر احتياج هو الشخصية المثالية
- كم نحب رسول الله ﷺ!

أكبر احتياج في مدرسة العقل والقلب هو الشخصية المثالية

الذي يمنح الإنسان إنسانيته هي التربية الإلهية

إن اللّٰه تعالى قد جعل السموات والأرض في خدمة الإنسان[54]، ولم يترك الإنسان تائهًا غير مسؤول أمام هذه الأشياء وأمام نفسه[55]

أي لقد وجه اللّٰه تعالى الإنسان والطبيعة بالقوانين والشرائع الإلهية التي وضعها. حيث قدر اللّٰه تعالى بأن يعيش الإنسان في عالم الامتحان بين ميزان جاذبية الحرية وبين المسؤولية. وتوضح تلك الآيات الكريمة هذا الأمر فتقول:

«وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. اَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ» (الرحمن، ٧، ٨)

٥٤. انظر: الجاثية، ١٣.

٥٥. انظر: القيامة، ٣٦.



وهذه الآية تؤكد على وجوب اتحاد الإنسان مع الميزان الإلهي الذي وضعه في الكائنات. فكيف إذا كان النظام في ذلك الكون الواسع لا يشوبه أدنى خلل، لذا يجب على الإنسان ألا يحيد عن الحق في ارتباطه ورحلته إلى الله تعالى. والعارفون هم أسعد العبيد في العالمين، لأنهم يعيشون طوال عمرهم داخل ميزان كهذا الميزان. ولكن الذين يعيشون بلا توازن وقد امتلأت قلوبهم باللذات الفانية، وبعشق ما هو زائل، هم أشخاص غافلون عن سر المجيء إلى هذا العالم والرحيل عنه. وهؤلاء لم يتحدوا مع صنعة الخالق العظيم ونظامه الموجود في الكائنات، ولم يدركوا هذا التوازن العظيم. ومع الأسف الشديد فإن أعمارهم تمر في غفلة عميقة، ودوامة خادعة، أما آخرتهم فتكون خسرانًا كبيرًا.

إن إيضاح هذه المسألة هو مكنون في حقيقة الإنسان. وتلك الحقيقة هي أن الإنسان عندما أُرسل إلى الدنيا لهذا الامتحان قد خُلق فيه الميل للخير والشر معًا. لأن ذلك الامتحان يكون امتحانًا فقط عندما يكون الإنسان قادرًا على فعل الصواب وفعل الخطأ أيضًا.



لهذا فإن عمر الإنسان يمضي وهو في صراع دائم بين الخير والشر في عالمه الداخلي وعالمه الخارجي، لأن كليهما يريد أن يتحكم في الإنسان. حيث إنه توجد في داخلنا قوة الخير مثلما توجد في داخلنا قوة الشر، قوة النفس الأمارة بالسوء التي لم تترب ولم تتهذب.

في هذا الصراع لا تكفي الملكات فقط كالعقل والإدراك والإذعان والإرادة لتحقيق تفوق الخير وغلبته، لأن هذه الملكات لو كانت كافية لَماَ أَيَّدَ الله سيدنا آدم أبا البشر عليه السلام بالنبوة، ولَمَا بلّغه الحقائق الإلهية لكي ينال البشر السعادة في الدنيا والآخرة. وكان الله تعالى يوجه بني الإنسان في كل وقت إلى الحق عن طريق الوحي الإلهي والأنبياء. وقد أرسل سبحانه الكتب السماوية كداعم للعقل والقلب، وألزم عبيده بالتربية المعنوية.

لأن العقل سلاح ذو حدين؛ إما أن يُرْهِبَ الإنسان، وإما أن يعينه على فعل الأعمال الصالحة. والإنسان قد وصل بالعقل إلى **"أحسن تقويم"** أي إلى أعلى مستوى يمكن أن يصل إليه العبد. ولكن في أحيان كثيرة كان الإنسان بسبب العقل يهبط إلى مستوى **"بل هم أضل"** أي أقل

من الحيوان من ناحية الإدراك. ويجب في تلك الحال أن يؤخذ العقل تحت نظام معين. هذا النظام هو تربية الوحي وإرشاد الأنبياء. فالعقل تحت رقابة الوحي يحمل الإنسان إلى السلامة. ولكن العقل لو حُرم من إرشاد الوحي لكان سببًا في سوء العواقب للإنسان.

فكثير جدًا من الظالمين كانوا في ذروة العقل، ولكنهم ارتكبوا كثيرًا من الفظائع والمذابح ولم يشعروا بأدنى درجة من درجات عذاب الضمير. لأن المظالم التي ارتكبوها كانت بالنسبة إليهم هي في أعلى درجات العقل. فـ**"هُولَاكُو"** مثلًا عندما دخل بغداد أغرق في مياه دجلة أربعمائة ألف من الضحايا الأبرياء. ولكنه لم يشعر بأي تأنيب للضمير. وكان الآباء في مكة قبل الإسلام يحملون بناتهم لدفنهن أحياء بين توسلاتهن الصامتة التي تقطع نياط قلوب الأمهات، وكان يتساوى لديهم قتل العبد وقطع الحطب تبعًا لمقاييس عقولهم حتى إنهم كانوا يرون هذا الشيء كحق مشروع.

هؤلاء البشر كانت لديهم عقول وأحاسيس مثلنا، ولكنها كانت مثل مسننات المحرك (تروس الساقية) التي تعمل بشكل عكسي، فيكون الناتج عكس المنتظر منها.



وهذه النماذج كلها توضح أن الإنسان يحتاج إلى من يوجهه ويربيه ويرشده من ناحية ميوله ورغباته الفطرية الإيجابية والسلبية. ولكن الشرط أن تكون هذه التوجيهات مناسبة للفطرة. وهذا يكون ممكنًا عن طريق تربية الوحي، أي إرشاد ودعوة الأنبياء. وعلى النقيض من ذلك عندما يكون التوجه في شكل لا يلائم فطرتنا، فإن هذا يكون سببًا لشر وسوء بالغ.

فلو تحكمت أي خصلة في بنية الإنسان، فإنها ستحمل على عاتقها محو الخصلة التي تضادها. ولو تغلب الخير لبطُل تأثير الشر. ولو تغلب الشر لسعى إلى خنق الخير. وهكذا فإن هذا الصراع الداخلي في الإنسان يستمر طوال عمره. ولهذا السبب فقد تلطف الحق تعالى على الإنسانية بالأنبياء والأولياء كمرشدين ومعلمين لها. إنما استطاع الإنسان الذي تَرَبَّى بواسطة الأيادي الماهرة والنورانية المباركة أن يكشف الجمال والطيب الذي بداخله وذلك بفضل الله تعالى. وهكذا فقد أصبح البشر الجاهليون وأنصاف الوحوش الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء شخصيات بشرية في أعلى درجات الرقيّ والقيمة وقد تحقق ذلك في ظل توجيه وإرشاد الرسول ﷺ.



لأن البشر أصلًا عندما يتبعون إرشاد الأنبياء يصبحون عبادًا يرضى الله عنهم ويستحقون المديح. وأما الذين يرسبون في الامتحان الإلهي المتمثل في صراع النفس والروح فمآلهم إلى أسفل سافلين. والحياة الدنيا قد وُجدت من أجل التأكد من تحقيق بني الإنسان لأي من هذين الهدفين. والواقع أن الميول الإيجابية أو السلبية في داخل الإنسان هي التي ستوجه الإنسان إلى أي من هذين الأمرين بإرادته المحضة. وهذا التوجه سيتحقق تبعًا لنتيجة الصراع والجدال بين النفس والروح، ولكن الإنسان بينما يحقق هذا الأمر يبقى تحت الكثير من المؤثرات.

فالإنسان تغمره الروائح الزكية عندما يكون في حديقة الورود. أما في الأماكن النتنة فيتلوث بالروائح الخبيثة. أي إن البيئات المحيطة تنعكس بشكل حتمي على الإنسان. ولهذا السبب فإن البشر هم الأكثر احتياجًا بين كل الموجودات للإرشاد والتربية والتزكية.

والواقع أن سقوط الإنسان في السفالة التي تضيع حياته الفانية يأتي من تناقضاته القاسية التي تنبع من داخله. وسبب هذه التناقضات أنه يوجد في الإنسان أعلى الفضائل



التي تقرب إلى الله ﷻ مع أسوء الرذائل الحيوانية التي تبعد الإنسان عن هذا القصد من خلقه.

وعلى هذا النحو فإن العوالم الداخلية للبشر -الذين لم يتربوا التربية السليمة ولم تدرك قلوبهم معنى الحضور والسكينة- تصبح كأنها غابة يأوي إليها كثير من الحيوانات. وكل واحد من هؤلاء البشر يُكِنُّ في شخصيته طبيعة حيوانية على حسب ميوله ومزاجه. فمنهم الماكر مثل الثعلب، ومنهم المفترس مثل الضبع، ومنهم الجامع الحريص مثل النمل، ومنهم السامّ المميت كالأفعى،ومنهم من يداعب وهو يَقْرُصُ ومنهم مَصَّاصُو الدماء كالديدان، ومنهم من يضحك أمامك ويحفر حفرة من خلفك. وكل واحد من هؤلاء يحمل خصائص موجودة في حيوانات مختلفة.

والإنسان الذي لم يستطع أن ينقذ نفسه ويخلصها من سلطة النفس والهوى بالتربية المعنوية، فَيُكَوِّنَ شخصية سليمة، فإنه يظل داخل إطار من الخصال التافهة. فقد تتحكم شخصية حيوانية في شخص ما، وقد تتحكم فيه عدة خصال وسمات حيوانية. وغالبًا عندما تنعكس سيرتهم على صورهم فليس من الصعب على دمث الأخلاق فهم تلك الشخصيات



وإدراكها، لأن تصرفاتهم حقًا تكون مثل المرآة التي تعكس دنياهم الداخلية وعوالمهم الباطنية وهي مرآة صادقة لا تعرف الكذب أبدًا.

أليست الشيوعية التي كانت نظامًا تأسس على جماجم عشرين مليونًا من البشر انعكاسًا لبنية قلبية متوحشة؟!. والأهرامات التي دُفن حولها آلاف الأشخاص من أجل فرعون واحد أليست بناء تذكاريًا للظلم والمرارة؟!. وهذه الأشياء عند كثير من الغافلين تظهر كعناصر تاريخية تثير الدهشة إلى الآن في عقولهم. ولكن عندما يتم تقييم هذه الأشياء بمنظور الحق والحقيقة ألا تظهر لوحة وحشية تخيف حتى عتاة السفاحين وسافكي الدماء الظالمين وتحيرهم وتدهشهم؟!

كل هذا يوضح أنه لو حكم أشخاص يحملون شخصية الضفادع مجتمعا ما، فسوف يجعلون من هذا المجتمع مستنقعًا لهم. ولو حكمه أناس لهم أرواح الأفاعي والحيات فسوف تصاب الأمة كلها بالتسمم وتبدأ بالإرهاب والفوضى. لكن عندما يحكم ذلك المجتمع أشخاص يحملون طبيعة الوردة فسوف يتحول ذلك المجتمع إلى بستان ويحصل الناس على السعادة والسكينة الحقيقية.



ولهذا فلا بد للإنسان من تربية الوحي. لأن الذين يبتعدون عن هذه التربية حتى ولو لم يقدموا ويعرضوا لوحات وحشية كهذه اللوحات التي ذكرناها فهم في كل لحظة يقومون بما يستوجب وصفهم بالوحشية، حتى ولو أظهروا مجموعة من السلوكيات والتصرفات الجميلة والصحيحة.

لأن الجماليات كلها التي تُكتسب خارج التربية الإلهية هي جماليات مؤقتة. لأن أنواع الميول غير السوية كلها والسيئات كلها في البشر المحرومين من التربية العالية، سرعان ما تظهر على السطح خاصةً في الأوقات الصعبة وفي أثناء فوران الرغبات الشهوانية. لأن النفس التي لم تَتَرَبَّ تشبه القط الحريص على صيد الفأر. فبينما يأكل ذلك القط الأطعمة المتعددة اللذيذة التي وضعت أمامه إذا به يرى فأرة فيترك ملذاته الجميلة التي أمامه فورًا ويثب سعيا وراء الفأرة التي شاهدها. فإذا لم يرب الإنسان بالمقاييس الإلهية فإن نفسه التي تشبه القط تجعل قلبه -ولو كان لديه جماليات متعددة- يعدو وراء كل فأرة صادفها فتهلكه (أي الإنسان). وعندما ننظر إلى حياة فرعون والنمرود نرى أنهم ارتكبوا مذابح عامة كثيرة بلا حق في سبيل رغباتهم التي كانت في حكم الفأرة.

بينما نجد التربية الإلهية تأمرنا أن نرتعش أمام أصغر حق للعبد كما تهتز شعلة الشمعة من الهواء، فما بالك بقتل الإنسان بغير حق! حتى إن رسول **الله** ﷺ قد نهى عن قطع فرع الشجرة الأخضر. وعندما ذهب إلى فتح مكة جعل الجيش يعبر من طريق مخالف حتى لا يزعج ويخيف كلبة جلست ترضع صغارها. ومرة أخرى أصابت الدهشة رسول **الله** ﷺ أمام جُحر نمل محترق وقال متأثرًا:

"من أحرق جُحر النمل هذا؟"

وهكذا فقد أسس العثمانيون -الذين تشربوا تلك الروح- الكثير من الأوقاف التي وصلت إلى الذروة سواء في خدمة البشر، أو في الشفقة بالمخلوقات وذلك بالرحمة التي تعلموها من رسول **الله** ﷺ، حتى إنهم شكلوا أوقافًا تهتم حتى بصحة الحيوانات. ومن مظاهر تلك الشفقة التي ينقل عنها الأجانب الذين جاؤوا للسياحة في الدولة العثمانية أن القطط والكلاب في أحياء المسلمين كانت تدور بلا خوف حول الناس، أما في الأحياء الأخرى فعندما كانت ترى أحد الناس كانت تفر مسرعةً.



والأمثلة السابقة هي مظاهر للإنسان الذي تربّى، وللإنسان الذي لم يعرف التربية. فالذي يسفك الدماء ويشربها ويروي بها الأرض هو إنسان، والذي يتبرع بدمه لمن يحتاج ويقدم له الوردة هو إنسان أيضًا.

فيالها من حكمة أن يعيش في هذه الدنيا البشر أصحاب الشخصية الإيجابية والبشر أصحاب الشخصية السلبية العكسية معًا في نفس المكان. وإذا تطلب أن نوضح هذا الأمر بمثال نقول إن هذا يشبه العذاب الذي يتحمله رغمًا عنه غزال رقيق حُبس في حظيرة مع الحيوانات الضخمة السمجة الشرسة. فأحيانًا يعيش جنبًا إلى جنب اللئيم البخيل مع الكريم، والأحمق مع العالم، والرحيم مع الظالم. أما الكريم فهو رحيم متواضع أهل لخدمة الآخرين. والأحمق لا يفهم العالم. والظالم يظن أن ما يفعله هو العدل، ويستخدم القوة ضد من هم حوله. أي إن قساة القلوب يعيشون مع الناس ذوي الأراح الملائكية في الحياة الدنيا سويةً. وبينما أحدهم يعيش ليعرف الحق ﷻ ويكون عبدًا مطيعًا له ويسعى في طريق الوصول إليه سبحانه وتعالى، نجد آخر يظن أن السعادة في أن يعيش مُتبِّعًا أخلاق الأسفلين من المخلوقات،

بحيث تكون حياة هؤلاء عبارة عن الحرص على الطعام والشهوة والمنصب وما يشابهها من أمور الدنيا الفانية.

إنه امتحان صعب وقاس للغاية أن نعيش في دنيا واحدة تسكن فيها الشخصيات المتضادة كلها. ولكن الإنسان مُجبَر لأن يجتاز هذا الامتحان. لأن الغاية الأصلية للإنسان هي النجاح في امتحان الدنيا، ونوال القرب الإلهي. ومن أجل هذا يلزم أن يتجرد الإنسان وينسلخ عن الصفات السيئة ويتحلى بالصفات الممدوحة أي أن يعيش عزة الإنسانية وشرفها.

والإنسان الذي هو سماوي من ناحية روحه قد خلق من تراب من ناحية بدنه. ولهذا السبب فإن روحه بينما تعود إلى الله فإن بدنه سيعود إلى التراب. والإنسان من ناحية بدنه يحمل الأوصاف التي في المخلوقات الأخرى. ولهذا السبب تكون ضرورة له أن يعمل على تربية نفسه تربية معنوية وأن يزكي تلك النفس، وأن يتحكم في هواه، وأن يغذي روحه ويقويها. وإذا انعكست تلك الحال للنقيض فلن يستطيع أن ينجو من الهزيمة أمام الشيطان من الخارج، وشهوات النفس من الداخل. وفي ذلك الوقت تضعف قوة الروح. وفي ذلك تقول الآيات الكريمة:



«وَنَفْسٍ وَمَا سَوّٰيهَا. فَاَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوٰيهَا. قَدْ اَفْلَحَ مَنْ زَكّٰيهَا. وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰيهَا» (الشمس، ٧ - ١٠)

ويوضح **مولانا جلال الدين الرومي** بذلك التشبيه البليغ الفجور والتقوى التي في عالم الإنسان الداخلي والذي أخبرت عنه الآيات فيقول:

"أيها المتوجه إلى الحق ﷻ لو أردت أن تعلم الحقيقة فاعلم أن موسى وفرعون لم يموتا، بل هما أحياء يعيشان إلى اليوم في داخلك، ولكنهما مخفيان وهما في حروب مستمرة في قلبك، ولهذا السبب يجب أن تبحث في نفسك عن هذين الشخصين اللذين أحدهما عدو للآخر"

ومرة أخرى **يقول مولانا:**

"لا تنظر إلى تنمية البدن وتغذيته بشكل مفرط. لأنه في النهاية سيُقدَّم كأضحية إلى التراب، بل انظر أساسًا إلى تربية قلبك لأنه سيتشرف وسيذهب إلى العالم العلوي. وغَذِّ بدنك بالقليل من العسل والسمن كطيبات، لأن الذي يغذي بدنه فوق المطلوب يسقط في النهاية في رغبات الشهوة ويصبح ضعيفًا ورذيلا ومُنْحَطًّا. وغَذِّ روحك بالمعنويات،

وفكر فيما يلائم الروح لتسير بقوة شديدة في رحلتها إلى الأماكن التي ستذهب إليها"

ومثل النفس التي لم تترب كمثل الشجرة الضعيفة الجذور. وعلامات ضعف تلك الشجرة تظهر على الفروع والأوراق والثمار، فلو كان في القلب مرض فسوف يظهر على حركة البدن ويسبب له الضرر. وهذه الأوصاف الشهوانية مثل الحقد والحسد والكبر هي التي تحتاج إلى العلاج. أما إصلاح الصفات السلبية تلك فيمكن أن تتحقق بالدخول ضمن حدود الله تعالى أولًا، وأن تُرضي الله في سلوكك وأن تستقيم كما يجب. أما الحاجتان الأساسيتان للإنسان لكي يؤسس شخصيته بشكل يُرضي الله تعالى فهما: الحاجة إلى اتخاذ القدوة والأسوة والميل إلى التقليد والاتباع.

ميل الإنسان إلى اتخاذ القدوة والتقليد

إن الإنسان يحتاج إلى قدوة في شأنه كله اعتبارًا من اللحظة التي يولد فيها. لأن الأفكار كلها التي تشكل حياته مثل اللغة والدين والعادات والأوصاف الأخلاقية تتكون من النماذج التي تعرض عقائدها وأنشطتها ومن الانطباعات



التي تؤخذ من تلك النماذج. وبرغم وجود بعض الاستثناءات الصغيرة، فإن الحل بشكل عام يكون هكذا.

فمثلًا لو تحدث الأب والأم أي لغة فسوف يتعلم الطفل تلك اللغة فقط. وبعد ذلك يمكنه بالنماذج الأخرى تعلم لغة ثانية وثالثة ورابعة. ومن هذا الوجه فإن تربية الإنسان وتعليمه ليست سوى تقليد الأشياء الإيجابية أو السلبية، والذي هو مركوز في فطرة الإنسان، إضافة إلى بعض المؤثرات. وفي ظل هذا فإن الإنسان يتأثر من الأب والأم التي ربته، ومن عائلته وفي النهاية من المحيط الذي يعيش فيه. وينضم إلى المجتمع كشخصية إيجابية أو سلبية بحسب استعداده الذي كان في هذه التقاليد.

ولكن بينما يكون الأمر سهلًا أن يتعلم الإنسان اللغة وما يشبهها من الأمور الظاهرة، فإنه تظهر صعوبات جادة وكبيرة في تشكيل دينه وأخلاقه وعالمه المعنوي. لأن الموانع والعوائق مثل الشيطان والنفس والهوى التي أوجدتها الإرادة الإلهية لاختبار الإنسان وامتحانه، لا تترك الإنسان أبدًا وتسعى لإبعاد الإنسان عن تقليد هذا النوع من الفضائل.

لذا فإن البشر يُفتنون بالأشخاص الذين يعتبرونهم مرشدين لهم -سلبًا أو إيجابًا- بسبب الميل إلى التقليد واتخاذ القدوة المركوز في فطرتهم، ويسعون إلى اتباعهم كل بحسب طاقته وجهده. ولهذا السبب فإن البشر ما لم يتشكل دينهم وأخلاقهم وعالمهم المعنوي على يد الأنبياء وأولياء **الله**، فإنهم لن يستطيعوا النجاة من الانجراف إلى الغفلة والضلالة والعصيان. وهكذا تتحول سعادتهم الأبدية إلى خسران مبين.

واليوم فإن حال الذين اتخذوا ممن يهيمون في السفاهة والدناءة من المشهورين نموذجًا لهم، وألقوا بأنفسهم وسعادتهم الأبدية إلى التهلكة لكي يصلوا إليهم، ما هو إلا إسراف إنساني وإفلاس حضاري لا مثيل له. فإن تقديم عرش القلب إلى أناس تافهين ليجلسوا عليه هي حال عجيبة من الخسران والضياع.

وقد لخص **مولانا جلال الدين الرومي** موضوع حيل النفس بعبارة مشخصة وواضحة، حيث صور خداعها العجيب والغريب للإنسان قائلا:



"لا عجب من فرار الخروف من الذئب، لأن عدو الخروف وصائده هو الذئب، لكن الشيء الذي يحير هو انجذاب قلب الخروف إلى الذئب"

"وكم من سمكة كانت تعيش في أمان من كل شيء داخل الماء ولكن بسبب حرصها وطمعها تعلقت بالصنارة"

لهذا السبب فالبشرية تحتاج دائمًا إلى مرشدين ذوي أرواح ذكية وقلوب رقيقة، ليدلوها ويرشدوها إلى مصائد ومكائد النفس والهوى.

شخصية الرُسل المثالية والنموذجية صلوات الله وسلامه عليهم

ثمة أمر هام جدًا لبني الإنسان يتمثل في وجود نماذج كاملة يتبعها ويسير في أثرها. إن حب الإنسان شخصية معينة وإعجابه بها ومحاولته تقليدها أمر فطري؛ ولذلك فإنه من الضروري له أن يبحث عن أكمل نموذج لكي يقتفي أثره. ولهذا السبب كان من لطف الخالق ﷻ وكرمه أنه لم يرسل فقط الكتب لبني الإنسان، بل أرسل إليهم الرسل أصحاب الأوصاف الكاملة ليكونوا تعبيرًا حيًا ناطقًا لتلك الكتب.

هؤلاء الرسل هم شخصيات نموذجية لأن الكمال يُعرض من خلالهم في جميع نواحيه في التصرفات والسلوكيات الدينية والعلمية والأخلاقية. وكل نبي من هؤلاء الأنبياء قد بلغت سلوكياته النموذجية المعروفة الذروة في تاريخ الإنسانية، وقدمت خدمات استثنائية لكل البشرية.

والأولياء أيضًا أي أرباب الحق ﷻ وورثة الأنبياء كانوا هم العارفين والصالحين والمؤمنين الكاملين لأنهم:

- قد مزجوا ظاهر الدين بباطنه بالشكل المناسب ونقشوه في شخصياتهم.
- وقطعوا المراحل القلبية في طريق الزهد والتقوى ووصلوا إلى كمال السلوك.
- ووسّعوا مداركهم ومشاعرهم إلى آفاق كل من عالمي الدنيا والآخرة، وعرفوا لذة الإيمان ووصلوا إلى عميق الإحساس والشعور.
- وقد خلّصت أعمالهم وجهودهم الإنسانية جميعها من الخصال والصفات السيئة كلها، ومن غي النفس



المظلم، وارتقوا بها إلى الأخلاق الجميلة يعني إلى سماء الكمال المعنوي.

إن هؤلاء قمم بلغوا الكمال في الإرشاد والسلوك النبوي وانتشروا عبر الأزمان. أي إن شخصياتهم العالية يجب أن تُتخذ نموذجًا لمن لم يستطع أن ينال شرف رؤية الأنبياء. لأن نصحهم وإرشادهم -الذي أحيا القلوب بلسان الرحمة- هي قطرات ندى روحانية ترشحت من منبع النبوة أساسًا.

والبشر أيا ما كان مكانهم في الدنيا لو شدت انتباههم عدالة تحكم بينهم وتسود، ولو وُجدت شفقة ورحمة تربط بين قلوبهم، ولو هرع الأغنياء في أي مجتمع لمساعدة الفقراء وأحسنوا معاملتهم بالشفقة والرحمة، ولو دافع الأقوياء عن المظلومين، ولو ساعد الأصحاء الضعفاء، ولو كفل الأغنياء الأرامل والأيتام لقلنا بلا تردد: إن هذه الفضائل كلها قد انتقلت من الأنبياء ومن تبعهم وسار على نهجهم.

فالعائلة الإنسانية التي بدأت بسيدنا آدم وأُمّنا حواء عليهما السلام لكي تعيش في جو من السعادة والحضور الديني



اتخذوا الكعبة أول مكان وبيت للعبادة. وبعد ذلك فإن بني آدم الذين انتشروا في الأرض بسبب الضرورات الحياتية والاجتماعية كان يتم إرشادهم وتعليمهم عن طريق الأنبياء لكي يستمروا في أداء حياتهم الدينية. وعندما كان يتم تحريف الحقائق الإلهية من قبل مجموعة من مخربي الدين والجهلة فإن **الله** ﷻ بدأ يرسل الأنبياء ليُزيلوا هذه الانحرافات ويعيدوا إحياء الدين من جديد. وعلى هذا المنوال ظل عالم الإنسانية يتخلص من أَزَمَاتِه الفردية والاجتماعية عبر التاريخ بفضل من **الله** تعالى ورحمة منه، حتى وصلت إلى عصر النبي ﷺ.

وأخيرًا جاء "**عصر السعادة**" الذي يشبه وقت العصر في دُنيانا، ووصلت الحياة الدينية مرة أخرى ذروة كماله للمرة الأخيرة في المكان الذي بدأت فيه. وتمثلت تلك الذروة والقمة في سيد الأنبياء سيدنا محمد ﷺ. وبعد "**الكمال المحمدي**" الذي شكل الذروة لم يعد في الإمكان تصور كمال جديد. لذا فقد وصل إحياء الدين وتجديده عن طريق إرسال الرسل إلى نهايته. وأصبح الدين الذي ارتضاه الحق ﷻ هو دين الإسلام.



ويمكن أن نقول في هذه الحال: إن رسولنا الكريم ﷺ كان هو أكمل نموذج في تعليم وتوجيه الإنسان بالأمثلة العملية التي لا حصر لها والتي شوهدت وعُرضت في حياته. والواقع أن الميل إلى تقليد النبي ﷺ هو من الفطرة، لكن النجاح في تقليده و اتباعه فهو بلا شك مرتبط بالافتتان بشخصه وشخصيته وحبه من كل قلوبنا.





كم نحب رسول الله ﷺ؟!

استعمال الفؤاد والعقل

إن الحق ﷻ قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وشرّفه بأن جعله فوق الوجود كله. فضلًا عن ذلك فقد بين للإنسان أنه قد سخر ما في السموات والأرض جميعًا لخدمته. ومن الطبيعي أن كل هذا لقوم يتفكرون.

ويمكن القول أن أعظم وظائفنا هي أن نفكر في نعم الخالق ﷻ علينا وأن نستخدمها طبقًا وتبعًا للقصد من إعطائها، ونحن مكلفون ومأمورون باستخدام واستعمال قلوبنا وعقولنا خاصةً على أفضل شكل وأحسنه.

فكيف يجب استعمال العقل؟

يجب على العقل ألا يطيع ويسلم قيادته للهوى والنفس وعلى العكس من ذلك يجب أن ينتبه إلى أنه موجود وكائن في دنيا الاختبار ليقف على الحقائق الإلهية ويفهمها ويعرفها.



وكيف يجب استعمال القلب؟

القلب هو مكان العشق الحقيقي للمولى عز وجل.وهو مكان نظر الخالق. ولهذا يجب تطهيره من أنواع الذنوب والمساوئ كلها، وأن يمتلئ بالذكر والتوحيد. وفي النهاية يستطيع أن ينتقل إلى معية الله تعالى وحضرته وهو قلب سليم.

النموذج الوحيد والفريد هو محمد رسول الله ﷺ

إن الحق عز وجل قد أرسل الرُسل بقصد إرشادنا وتنبيهنا، وهو بلطف وكرم لا حد له قد أرسل إلى خلقه ما يقرب من مائة وأربعة وعشرين ألف رسول ونبي حتى مبعث الرسول محمد ﷺ. وقد أرسل الله تعالى أحب الرسل وأخصهم وأقربهم إليه نبينا محمدا ﷺ في آخر المطاف خاتما للرسل. وقد أُرسل كل رسول إلى قوم خاصةً، وكان هذا الرسول يقوم بتعليم قومه وإرشادهم تبعًا لحال أولئك القوم وتركيبةِ ذلك المجتمع.

أما رسول الله ﷺ فقد أرسله للبشرية كلها، وجعل دعوة الرسول ﷺ تمتد حتى يوم القيامة. وقد أنعم الله تعالى به في

أشد أوقات الدنيا ظلمة وجهالة ليكون مثل الشمس تشع هداية على الإنسانية، وأحسن إلينا بهذه الهدية محمد رسول **الله** ﷺ.

القرآن الكريم هو أكبر المعجزات

إن **الله** تعالى قد وهب رسوله ﷺ أكبر المعجزات، ألا وهي القرآن الكريم. والقرآن سيُثبت حتى يوم القيامة أنه كلام **الله** تعالى وأن محمدا ﷺ رسول **الله** عَزَّ وَجَلَّ وسترى الإنسانية كلها إلى يوم القيامة تلك المعجزة التي أُعطيت لرسول **الله** ﷺ وستعرفها عن قُرب.

وقد صنع سيد المرسلين ﷺ بمعجزة القرآن مجتمعًا سُمي بـ"**مجتمع عصر السعادة**" [٥٦] ولم تعرف الدنيا مجتمعًا كهذا المجتمع. لأن تلك الأيام قد شهدت ظهور بشر وصلوا إلى قمة الثريا بعد أن كانوا يعيشون في وَهْدَةِ الثرى. فذلك المجتمع الوحشي كان يدفن بناته وهن أحياء ثم بتعليم النبي ﷺ وتربيته لهم التربية النورانية الروحانية، تحول إلى مجتمع مملوء بأحاسيس الرحمة والشفقة والمسؤولية، لدرجة أنه

---

٥٦ الأتراك يستخدمون مصطلح "عصر السعادة" تيمّنا ويقصدون به عصر الحبيب ﷺ وذلك تأدبا منهم بتخصيص عصره ﷺ بالسعادة.



لم يعد يستطيع أن يتحمل أن يفترس ذئب حملًا على شاطئ دجلة. وهذا النجاح وحده كاف ليظهر كيف أن رسول الله ﷺ كان في شخصه أفضل نموذج يمكن اتباعه بمعنى أكمل كـ**"أسوة حسنة"** لما عرفتها الإنسانية.

من كان أعمى يغتاب الشمس ويحسدها

لو لم تَعْمَ القلوب لرأت رسول الله ﷺ بالتأكيد، ولو لم تعشُ وتُصب بقصر النظر لما استطاعت أن تجد فيه أي ضعف. أي إن من يسعى ليضيف أي نقص إليه لن يستطيع أن يفعل شيئًا سوى أن يعبر عن عجزه هو في الأساس وعن نقائصه وأخطائه.

إن التاريخ مملوء بالمظالم والافتراءات الكريهة التي سببتها الأقوام لأنبيائهم. لأن الحقائق الإلهية التي بلغها الرسل كانت أحيانًا تسبب القلق والاضطراب لهؤلاء البشر الذين لم تكن تلك الجماليات تلائم وتناسب ميولهم ورغباتهم الشهوانية.

وكانوا ينسبون الأعمال القبيحة والأخلاق الذميمة التي كانوا يرتكبونها إلى الأنبياء والرسل حتى يزينوا تلك الأعمال ويكسبوها المشروعية.

واليوم فإن حملات الأكاذيب القبيحة التي تتم ضد الرسول ﷺ لا تعكس في الحقيقة شيئًا آخر سوى سوء أخلاق وسوء طالع هؤلاء الأشخاص الذين يقومون بها.

فكل موجود يستطيع أن يديم حياته في مكان مناسب لطبعه هو فقط، والإنسان ليس استثناءً من هذه القاعدة. فكما أن غذاء نحل العسل ومجال تنفسه والعالَم الذي يعيش فيه هو الزهر فلا يستطيع العيش خارج ذلك العالم الذي تعوَّد عليه؛ فإنه على العكس من ذلك نجد الفأرة التي تآلفت مع النجاسة والوسخ وتعودت عليها لا تستطيع أن تسكن في حديقة الورود. وكذلك الأرواح العالية مثلما تتغذى بالفيوضات الوجدانية التي تنعكس من **الحقيقة المحمدية**، فإن الأرواح الخبيثة والفاسقة تشعر بالراحة مع الخباثة والسوء.

فأبو بكر الصديق رضي الله عنه كان ينظر إلى وجه رسول **الله** ﷺ ومحياه ويُذهل قائلًا: **"يا رب ما هذا الجمال!"** وهذا كان



في الأساس مشاهدة لعالمه الداخلي في مرآة نفسه. لذا فعندما قال رسول **اللّٰه** ﷺ ذات يوم:

"ما نفعني مال قط ما نفعني مال أبي بكر"

فبكى أبو بكر رضي الله عنه وقال:

"هل أنا ومالي إلا لك يا رسول اللّٰه" (ابن ماجة، المقدمة، ١١)

وبهذا القول أظهر أبو بكر رضي الله عنه أنه قد نذر نفسه وكل ما معه لرسول **اللّٰه** ﷺ وأنه كان يفنى في حب رسول **اللّٰه** ﷺ، لأن عالمه الداخلي قد تحول إلى مرآة تعكس أخلاق الرسول الأكرم ﷺ.

ومن ناحية أخرى فإن أبا جهل العدو الأكبر **للّٰه** ولرسول **اللّٰه** ﷺ كان يتغير حاله تغيرا سلبيا من وجه الرسول ﷺ المبارك، فبقي محرومًا من الجمال والقدسية الْمُتَّسِمَة في وجهه ﷺ. وسبب هذا الفرق أن كُلاًّ منهما عندما ينظر إلى النبي ﷺ كان يرى حقيقة نفسه في **"المرآة المحمدية"**

لأن الأنبياء والرسل مثل مرآة مجلوة كل فرد يرى فيها عالمه الداخلي. ولا توجد مرآة تكذب أبدًا فتظهر القبيح



جميلًا وتظهر الجميل قبيحًا من أجل خاطر الناظر. والمرآة تُظهر للناظر ما ينعكس عليها.

والواقع أن من يسعى إلى التسلط والعدوان على الإسلام والقرآن الكريم والرسول ﷺ سيتعرض بدون شك للانتقام الإلهي إنْ عاجلًا أو آجلًا. لأن **الله** ﷻ يحفظ ويحرس الإسلام بقدرته وعظمته.

ومن المعلوم أن المسلمين الملتزمين بمبادئ دينهم والذين امتلأت قلوبهم بمحبة رسول **الله** ﷺ يشعرون بالأذى ويتألمون كثيرًا من الأقلام المسمومة التي تهاجم الإسلام، والتي ينقص أصحابها معرفة أنفسهم. وهذه الأقلام كالأفعى التي تعيش في الظلام، وتتحرك من حين إلى حين للإزعاج والانتقام.

ويجب أن نعلم جيدًا أنه من لطف **الله** تعالى بالإنسان أنه لا أحد يستطيع أن يمحو من فطرته الميل للحق والحقيقة. وعلى الرغم أن الإلحاد يسعى إلى أن ينتشر بأنواع الظلم كلها، إلا أنه لم يستطع أن يمنع اخضرار جذور الدين العلوية التي ارتكزت في أعماق الروح والوجدان والضمير. فالعبد لا يستطيع أن يمنع حاجته المتمثلة في الاقتراب من **الله**



تعالى. ولا يمكن أن تُعَرْقَل السعادة العلوية الموجودة في فطرته. لأن القدرة الإلهية قد قدرت أن تكون الحاجة للدين والاقتراب من الرب من سُنَن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتغير.

وما أجمل ذلك التصور الذي يصوره **مولانا جلال الدين الرومي** للغافلين الذين يصرفون جهدهم لإخماد النور الإلهي وهم مصابون بالعمى تجاه الحقيقة فيقول:

"إن من يعيب الشمس التي تنير دنيانا ويبحث عن قصور فيها، هو من في عينيه عَمًى. فليتهم نفسه ويشتمها قائلًا لها: يا من في عينيه العَشَى"

"ولو أراد الله تعالى أن يهتك ستر أحدهم وأن يفضح عيوبه لأعطى لقلبه الرغبة في ذم الأشخاص الأطهار والاستهزاء بهم"

لذا يجب على الإنسانية أن تفكر في كيفية أن تحول الإساءة التي في حق النبي ﷺ إلى شكر يُقدم له ﷺ. لأن القلب الذي لا يمتلئ بمشاعر الشكر والتقدير أمام حرص

الرسول ﷺ وسعيه من أجل هداية البشر منذ ميلاده حتى وفاته ﷺ فهو ليس بقلب.

وذلك لأن محبة رسول الله ﷺ لنا المسلمين كانت أكثر وأعظم من حب وشغف وعناية الأب والأم لأولادهما. وفي ذلك يقول الرسول الكريم ﷺ:

"لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاَثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلاَلٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلاَّ شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلاَلٍ"
(الترمذي، القيامة، ٣٤ /٢٤٧٢)

لكن وجدانه وقلبه لم يشك أو يتذمر من هذا أبدًا. فإن الاضطرابات والأوجاع التي تصيب أمته تحرق قلبه. وهو رسول مليء بالرأفة والرحمة بنا، لدرجة أنه يسعى بكل جهد لينقذنا في هذه الحياة كما أنه يَخِرّ يوم الحشر تحت عرش الرحمن ساجدًا يدعو ويشفع لنا ولا يقوم من السجود حتى يقبل الله دعاءه وشفاعته لنا[٥٧]

---

٥٧ انظر: البخاري، الأنبياء، ٣، ٩؛ مسلم، الإيمان، ٣٢٧، ٣٢٨؛ الترمذي، القيامة، ١٠.



ومقابل هذا الرسول الذي يسعى جاهدا ويعاني الكثير من أجل إنقاذنا ألا يجب علينا أن نتقدم بالشكر والتقدير والثناء له على أن نتمثل بتعاليمه وأن نكون من المؤمنين الذين يرضى عنهم الرسول ﷺ وعلى أن يكون لكل واحد منا قلب يحبه ويعشقه ويجعله أعز من روحه التي في صدره.

لقد كان قلبه يختلج من أجل الشفاعة لنا في الدنيا والآخرة، فلِمَ لا يكون كل واحد منا المؤمن الذي أراده رسول **الله** ﷺ؟! ولِمَ لا يكون لكل واحد منا قلب عاشق مُحب له ﷺ؟! ولِمَ لا يكون ﷺ بالنسبة لنا أعز من أرواحنا التي بين صدورنا؟!

إن المحب لمن يحب مطيع

"**المرء مع من أحب**" (البخاري، الأدب، ٩٦)

فما مقدار حبنا لرسول **الله** ﷺ

من الطبيعي أن نفهم وأن نعيش هذا الحب على أنه ارتباط وعلاقة تُقسم بين الحبيب والمحبوب. والمعية الحقيقية مثل قانون الأواني المستطرقة (المتحدة) في الفيزياء التي تعمل على التساوي والتشابه بانتقال الأحوال والأوضاع وظهور



المشتركات في الشخصية. فالشخص متحد مع من يحب في القول والمعنى والجوهر، وهو متحد مع من يحب في التصرفات والسلوكيات، وهو متحد معه في الإحساس والفكر، وهو متحد معه في العيش والحياة.

يعني لو لم يكن هناك اتحادات كتلك التي في الحب، ولو سلك كل حبيب طريقا يناقض طريق محبوبه فلن يستطيع أن يتحد مع من يحب في أي وقت، لأنه كما يقال لم يحب بالمعنى الحقيقي.

وتبعًا لهذا فما مقدار حبنا لرسول الله ﷺ وما مقدار تمسكنا بسنته الشريفة؟ وما مقدار ما نحكي لأولادنا ومن هم حولنا عنه؟ وما مقدار ارتباطنا القلبي بأمانتيه الكبيرتين القرآن الكريم وأهل بيته؟ وما نصيب بيوتنا من بيوت أهل البيت التي كانت مملوءة بروحانية القرآن والسنة المطهرة؟.

اتباع الرسول ﷺ يحتاج إلى التدريب والتربية القلبية

من الضروري أن نجعل من رسول الله ﷺ قدوة لنا ونموذجًا في مراحل ومجالات حياتنا كلها من أجل سعادتنا في تلك الدنيا المضطربة ويوم المحشر العظيم.



ويجب أن نتخذ منه قدوة في الحياة الاجتماعية وفي الحياة العائلية وفي الحياة العملية. فهو مثال فريد لا مثيل له للبشر كلهم من أقلهم قدرًا إلى أعلاهم قدرًا.

فكيف سنتخذ منه القدوة؟ هل سنتعلم من ورقة مكتوبة؟ لا، إن تعلّم ذلك النموذج ودراسته يكون في عالم قلوبنا.

ويوضح الحق ﷻ أسلوب التعلم هذا في القرآن الكريم فيقول:

«لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّٰهِ اُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللّٰهَ وَالْيَوْمَ الْاٰخِرَ وَذَكَرَ اللّٰهَ كَث۪يرًا» (الأحزاب، ٢١)

أي إن الشرط الأول لهذا التعلم والدراسة هو تمني لقاء الله تعالى. ويلزم أن نعيش بهذا الشعور على الدوام ولا ننسى في أي لحظة، أننا محاسبون أمام الله تعالى.

والشرط الثاني لهذا التعلم والدراسة هو تمني لقاء الآخرة والإيمان بشكل قاطع بهذا. ويلزم أن ندرك معنى أننا في عَالَم فَانٍ وأن نتجاوز حدوده. وقد عبر **مولانا جلال الدين** عن هذا الأمر أجمل تعبير فقال:

"الحياة الدنيا عبارة عن حُلم. وصاحب الثروة في الدنيا يشبه من يجد كنزًا في الحلم. فمال الدنيا باق فيها ينتقل من جيل إلى جيل"

ومن هذه الناحية يكون من الضروري أن ننتبه إلى أننا في دار امتحان. وبهذا الشكل يجب أن نجعل قلوبنا تسيح وتسبح في عَالَم الملكوت وقد أَبْعَدَت عن نفسها الهوى ورغبة الشهوة.

يهيم في الملكوت دائمًا رافعا عنه الرغبات الشهوانية.

وهكذا إذا اكتسبنا وضعا كهذا تحولت الآخرة بالنسبة لنا إلى ميدان لقاء. من أجل تعلم هذا يشترط أن نأخذ قدرًا من شخصية القدوة الحسنة رسول الله ﷺ.

وفي ذلك الوقت يعدنا الله تعالى بالجنة ويوضح أنه سيمن علينا بالنظر إلى وجهه الكريم.

والشرط الثالث لهذا التعلم هو ذكر الله تعالى كثيرًا. ويجب استحضار القلب دائمًا في معية الحق ﷻ. فما مقدار هذه المعية؟

والجواب في هذه الآية الكريمة:



«الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّٰهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلٰى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْاَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» (آل عمران، ١٩١)

والمعية الدائمة تعني استشعار أننا نعيش تحت العَدَسَة الإلهية التي تلتقط وتراقب صورنا بشكل دائم... فالله ﷻ أقرب إلينا من حبل الوريد. فما مقدار قربنا إليه سبحانه وتعالى؟ وهكذا من أجل تحقيق ذلك القرب يجب اتخاذ الرسول ﷺ قدوة لنا.

أين نحن من إدراك قَدْرِ النبي ﷺ؟

من المستحيل أن نسلك طريقا صحيحًا إلى الله تعالى دون أن نتعلم وندرك مقدار شرف رسول الله ﷺ. وقد بين لنا الحق ﷻ في القرآن الكريم القيمة التي أعطاها والشرف الذي منحه للرسول الكريم ﷺ فقال:

«اِنَّ اللّٰهَ وَمَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (الأحزاب، ٥٦)



فالله تعالى يصلي على رسوله الكريم ﷺ وملائكتُه كذلك يفعلون، وليس في مقدورنا أن نفهم بقلوبنا ومشاعرنا ومداركنا كنه وكيفية تلك الصلاة. فكيف يصلي الله تعالى على مخلوق من مخلوقاته؟

رغم وجود بعض التأويلات في هذا الأمر، إلا أن هذا يظل في الحقيقة **"سرًا إلهيًا"** ولكن من الواضح هنا أنه توجد محبة استثنائية من الخالق ﷻ لرسوله الكريم ﷺ **والله** تعالى يطلب منا أن ندرك ونعي هذا الأمر، من أجل ذلك أمرنا فقال:

«يَا اَيُّهَا الَّذٖينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلٖيمًا» (الأحزاب، ٥٦)

ولكن يجب ألا تكون تلك الصلاة وهذا السلام بألسنتنا فقط، بل يجب أن يكون حالنا كله صلاة وتسليما عليه ﷺ. إن كل تصرف وسلوك في حياتنا العائلية والعملية وفي معاملاتنا مع البشر يجب أن يظهر في وضع مناسب يليق بالصلاة والسلام عليه.



فمثلا يجب أن أفكر دائمًا هل كان رسول الله ﷺ يبتسم لو رأى تصرفاتي في حياتي العائلية وفي تجارتي وفي معاملتي مع الناس؟ وهل كان يبتسم لو رأى تربيتي لأبنائي؟ وهل كان يبتسم لو رآني في حياتي التعبدية؟

إن هذه الأسئلة لو لم نسألها لأنفسنا اليوم ولو لم نحاسب قلوبنا وأنفسنا عليها اليوم ولو لم نزنها اليوم بميزان الحق فغدا سوف يكون الحساب والميزان يوم المحشر أكثر رعبًا ورهبة.

و بلا شك فإن عنوان حسابنا يوم القيامة سيكون:

«اِقْرَاْ كِتَابَكَ كَفٰى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا»

(الإسراء، ١٤)

في ذلك الوقت سوف نرى أحوالنا المستورة والخفية كلها في صحائف أعمالنا. وسوف نشاهد حياتنا كأنها فيلم سينمائي، كيف كنا نؤدي صلاتنا؟ وكيف كنا نصوم؟ هل كنا نؤدي العبادات بصورنا فقط أم كنا نقيمها بأرواحنا وقلوبنا؟ وماذا عملنا في الدنيا لنشكر نعم الله علينا التي لا تعد ولا تُحصى؟ وما مقدار ما أنفقنا من أرواحنا وعقولنا وأموالنا وممتلكاتنا وذكائنا؟ وكم أضعنا منها؟ وما مقدار حبنا لله



تعالى ولرسوله ﷺ وما مقدار تمسكنا بالله تعالى وبأخلاق الرسول ﷺ؟

هذا كله سوف يعرض علينا في صحائف أعمالنا، هذا كله سوف نشاهده في معارض يوم القيامة. وفي هذا تقول الآية الكريمة:

«حَتّٰى اِذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَاَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (فصلت، ٢٠)

ولهذا السبب يجب أن نحاسب أنفسنا دائما فنقول:

ما الذي تشاهده أعيننا؟

كم مرة تستمع آذاننا إلى الوحي الإلهي والرسائل النبوية؟

كم مرة نستطيع أن نسخر أبداننا وقدرتنا في طريق الحق؟

والحاصل إن المسألة الأساسية هي: أن نستغل هذه الفرص و نتخذ جميع التدابير اللازمة من أجل تصور أحوالنا ودراستها وتدبرها قبل فوات الأوان.



امتحان الحب والأدب

إن البشر كلهم يعيشون في دار امتحان. أي إن هذه الدنيا دار امتحان إلهي. وإحدى هذه الامتحانات المهمة في تلك الدار يتعلق بالحب والطاعة والأدب مع رسول الله ﷺ وفي ذلك يقول الحق عز وجل:

«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا اَطِيعُوا اللّٰهَ وَاَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا اَعْمَالَكُمْ» (محمد، ٣٣)

ويقول أيضًا عز من قائل:

«يَا اَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَرْفَعُوا اَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ اَنْ تَحْبَطَ اَعْمَالُكُمْ وَاَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ. اِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ اَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللّٰهِ اُولٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوٰى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَاَجْرٌ عَظِيمٌ. اِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ اَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» (الحجرات، ٢-٤)



ويمكن القول إن أدبنا مع رسول **الله** ﷺ وطاعتنا لسنته المطهرة ومعرفة الرسول ﷺ معرفة وثيقة هو امتحان تقوى بالنسبة لقلوبنا، ووسيلة لتقييم عشقنا وحبنا له، وفي نفس الوقت وسيلة قرب **لله** عز وجل...

يمكن القول أيضًا إن من يتصرف مع رسول **الله** ﷺ بغلظة ويناديه من بعيد بصوت عال، ومن يعاملونه بغير احترام وتوقير هم أشخاص سفهاء لا يعقلون.

والنتيجة الأخرى التي تظهر لنا من هذا هي كيف يكون من الضروري اتخاذ رسول **الله** ﷺ قدوةً ومثالاً؟ وكيف يجب أن نزن حياتنا بحياة رسول **الله** ﷺ وفي هذا الشأن فإن الأمر الواضح لنا في القرآن الكريم هو:

«مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اَطَاعَ اللّٰهَ وَمَنْ تَوَلّٰى فَمَا اَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا» (النساء، ٨٠)

المقياس في حب رسول الله ﷺ

ومن الحوادث المهمة التي تبين لنا المستوى الذي يجب أن تكون عليه محبة رسول **الله** ﷺ ما رواه الصحابي الجليل عبد **الله** بن هشام رضي الله عنه حيث قال:



كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شيء إِلاَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"لاَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ" فَقَالَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه: فَإِنَّهُ الآنَ وَاللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"الآنَ يَا عُمَرُ" (البخاري، الأيمان، ٣)

وهكذا يجب علينا أن نتبع رسول الله محمداً ﷺ بحب وعشق كعشق عمر رضي الله عنه، أن نجعل من رسول الله ﷺ سلطانا على عروش قلوبنا ومرشدًا لحياتنا. لأن حب الرسول ﷺ فرض علينا[٥٨]

ويخبرنا الحق عز وجل في كتابه الكريم بضرورة أن يكون الرسول أحب وأعز على المؤمنين من أنفسهم فيقول:

«اَلنَّبِيُّ اَوْلٰى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ اَنْفُسِهِمْ» (الأحزاب، ٦)

---

٥٨. انظر: التوبة، ٢٤.



وفي هذا السياق ذكر الحديث الشريف أن محبة رسول الله ﷺ هي شرط الإيمان الحقيقي فقال:

"لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ" (البخاري، الإيمان، ٨)

لهذا السبب كان الصحابة الكرام ﭫ يستعدون لتلبية أصغر أمر لرسول الله ﷺ وهم ينادون بعشق يملأ قلوبهم:

"فداك أبي وأمي ونفسي وكل شيء يا رسول الله"

والواقع أن مقابلة هذه المحبة بعدم المبالاة والاحترام دليل على الجهل. والتمسك بهذه المحبة واحتضانها هو وَصْفَة الخلاص والنجاة.

علامة حبه ﷺ

إن الإنسان يتحدث كثيرًا عمن يحب. وفي كل مناسبة يبدأ في الحديث عمن يحب. ويتكلم عن الموضوعات التي تدور كلها حوله.

فرجل الأعمال الذي أغرق نفسه في العمل يتحدث عن تجارته دائمًا. فيقول هكذا ربحت وهكذا خسرت. وذلك



المكسب يوجد في هذا، وذاك المكسب يوجد في تلك... الخ. ومن يحب أولاده حبًا متطرفًا نجده في كل وقت وفي كل مكان يتكلم عنهم.

ولكن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وأولياء الله كانوا يتكلمون بانبهار كبير عن رسول الله ﷺ الذي عشقوه كل العشق وافتتنوا به كل الافتتان وكانوا يشعرون في هذا الأمر بلذة لا يمكن وصفها.

وهذه هي المعرفة والاتباع للرسول ﷺ وحبه المملوء بالشوق إليه لنجتمع به في الآخرة. فاللّهم أنعم علينا بمعرفة النبي ﷺ عن قرب، معرفةً شاملة، وأنعم علينا بحبه. آمين.

إن تمثل الحبيب بحال المحبوب وسعيه الدائم لسلوك طريقه هو أحد الأسرار المكنونة في "**المحبة**" التي هي سبب وجود العالم. ومهما يكون المحب ضعيفا وعديم القدرة، إلا أنه يَحْظَى من محبوبه حسب علو قدر محبوبه.

من الصعب جدا أن نصفه ﷺ كما يليق به

وفي الأثر أن خالد بن الوليد رضي الله عنه خرج في سرية فنزل بحيّ فقال سيد الحيّ:



"صف لنا محمدا ﷺ" فقال:

"أما إني أُفصِّلُ فَلَا" فقال:

"أَجْمِلْ" فقال:

"الرسول على قَدْرِ المُرْسِلِ"[٥٩]

فبما أن الذي أرسل نبينا محمدا هو خالق الكون ومُوجِده وصاحب القدرة العظمى ففكر مكانة وقدر المُرْسَل، عليه أفضل الصلاة والسلام.

فاللّٰهم اجعل لقلوبنا نصيبا من عشق الصحابة الكرام ﷺ لرسول الله ﷺ. وأنعم علينا بتزيين الحياة بمحبة رسول الله ﷺ...

آمين!



٥٩. المناوي، فتح القدير، جـ. ٥، ٩٢/ ٦٤٧٨؛ القسطلاني، ترجمة المواهب اللدنية، استانبول، ١٩٨٤م، ص. ٤١٧.



الخاتمة

يجب علينا لكي ننال شفاعة رسول الله ﷺ أن نزن حياتنا بالموازين النبوية التي أوضحناها هنا، وأن نحسب من جديد مقدار ما وصلنا إليه وفي أي نقطة توقفنا في أمر اتباعهﷺ ، وأن ندخل في مناخ من التفكير الجدي والحماسة.

ويجب أن نسعى ونجتهد في حماسة وسعادة داخلية أن نعيش حياة تليق بأمة محمد ﷺ وذلك بأن نعكس جمال رسول الله ﷺ وعمق شخصيته التي لا مثيل لها على عبادتنا، وعلى تصرفاتنا وسلوكياتنا، وعلى مشاعرنا وعلى أفكارنا، وعلى يومنا وغدنا، باختصار على دنيانا وآخرتنا. لأن الإنسان يُغرَم بمحبوبه ويقلده على قدر حبه له. ولكي نقلد ونتبع رسول الله ﷺ بما هو أهل له يجب علينا أن نسعى لمعرفته معرفة حقيقية في جوانبه و نواحيه كلها. وأن نقدر شخصيته النموذجية بما يليق بها.



فإن أي أرض مهما كانت خصبة فإنها لن تخضرّ ما لم ينزل عليها المطر، وتهب عليها رياح الربيع المشمسة. ولكن نستطيع أن نحول أي قلب إلى قلب مثمر كالأرض الخصبة بالانقياد والاتباع لفخر الكائنات الذي يمثل القدوة الحسنة للإنسانية كلها عليه أفضل الصلاة والسلام.

لأن محمدا ﷺ أعلى قدرا من الذين سبقوه ومن الذين يأتون بعده، لأنه منبع لا يَنْضَبُّ للفضائل ومكارم الأخلاق وسبب للبركة والرحمة كلها في هذا العَالَم. وعليه أُنزل القرآن الكريم -المملوء بحقائق الأزل والأبد- هديةً لعَالَم الإيمان والعقيدة.

والنتيجة الشاملة والنهائية التي تستنبط من كل ما ذكرناه هي: أنه مهما أظهرنا من الاحترام لرسول **الله** ﷺ أو لكل شيء يذّكرنا به -حتى في أدق وأصغر شأن له- هو أمر قليل لا يوافيه حقه. لأن رسولنا العظيم الشأن ﷺ كان أهلا لأن يخاطبه الحق تعالى ﷻ قائلا: **"يا حبيبي"** ولن نستطيع بكلماتنا العاجزة المحدودة أن نقترب من فضل رسولنا الكريم ﷺ وكماله، وأن نحيط برسول **الله** ﷺ وأن ندرك كنه



ذلك الرسول ﷺ الذي صلى عليه خالق الأكوان ومعه ملائكة لا حصر لها ولا عدد.

إن الاعتراف والإعلان بعلو درجته موضوع لا يقبل إلا الإذعان والإقرار بشأنه العظيم ولا يترتب علينا في هذا المجال إلا الصمت الأبدي. وبينما تقف الألسنة عاجزة كل العجز عند تصويره، فإن ما ذكرناه كله على لساننا هو مثل قطرة من محيط، وهو بمثابة قطرات من الندى ترشحت على إدراكنا وفهمنا.

ما أعظم سعادة المؤمنين الذين يكون عشقهم وحبهم فقط لرسول الله ﷺ، ولا ينخدعون بالزهور الزائفة في الحدائق البرية الموحشة.

فلنعد إلى ربنا نتنفس روحانية رسول الله ﷺ بكل ذرة فينا مبتهلين بنبضات القلوب...

لنتضرع إلى ربنا متوسلين بحجة محبتنا للنبي ﷺ...

فالصلاة على سيد الكونين محمد المصطفى

والصلاة على رسول الثقلين محمد المصطفى

والصلاة على إمام الحرمين محمد المصطفى



والصلاة على جَدِّ الحسنين محمد المصطفى.

اللّٰهم صلّ على محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

اللّٰهم اجعلنا ممن يحتذون حذو مرشدنا وسعادتنا الأبدية محمد المصطفى ﷺ واجعل لنا نصيبا من شخصيته المثالية المتميزة والفريدة والبديعة أسوةً حسنة لنا يليق به على الوجه الذي يرضيك.

وتوج دنيانا وأخرانا بحيث نتخذ ونكسب ونقتبس لأنفسنا فيضا من جماله.

وأنعم على قلوبنا بقطرات ندية فياضة من روحانيته الواسعة.

واجعل قلوبنا مكانًا دائمًا أبديًا لمحبة اللّٰه تعالى وحب رسوله ﷺ.

ويا رب ارزقنا شفاعته العظمى جميعًا... آمـــــــــــين!





ما أعظم الشرف أن نكون أمة له

فالجمال كله أينما كان، فهو انعكاس منه ﷺ.
ولا تتفتح أية زهرة في هذا العَالَم، إلا وقد اقتبس من نوره!
ولم نوجد ولم نخلق إلا بسبب وجوده ﷺ.
فهو عبارة عن وردة نضرة تفتحت ولم تذبل بل تزيد مع الأيام نضارةً وطراوة. وهو عبارة عن نور من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ...



إن الاقتراب من الحقيقة المحمدية يمكن أن يتحقق بالعشق والمحبة أكثر من العقل.فهي عملية قلبية وتسليمية.

إن استيعابنا للحقيقة المحمدية، كاستيعاب الأطفال للحوادث ما وراء الطبيعة.



فإن الله ﷻ عرض نموذج **"الإنسان الكامل"** الذي أراده، في شخص النبي ﷺ، فجعله شخصية فريدة لا مثيل لها في البشرية جمعاء.





إن الإنسان الوحيد الذي سُجلت حياته بأدق تفاصيلها في تاريخ البشرية، هو سيدنا النبي ﷺ. فكل الكتب المؤلفة في الثقافة الإسلامية هي نتيجة للجهود المبذولة لتبيان كتاب واحد، وشخصية واحدة.



إن حياة فخر الكائنات ﷺ ليذكرنا بحدائق الجنة المتلونة بمختلف الألوان والمتزينة بأجمل الأزهار النادرة المنسجمة. حتى إن الذين يتحرون لأنفسهم الأزهار ليجدون أجمل الورود في هذه الحديقة.



قال رسول الله ﷺ:

"إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا يعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس" (أحمد، ٣، ٣١٠)

لقد عرفه جبل أُحد وجذع النخلة وتَحَنّن إليه ﷺ حتى إنَّ الحيوانات اتخذته ملجأ تلجأ إليه واتخذته شريكاً لآلامها... إلا أن أبا جهل وأمثاله لم يعرفوه ولم يدركوا علو قدره لا في الأمس ولا في اليوم





إن حياة وسيرة نبينا ﷺ كالمرآة الصافية، بحيث يمكن أن يشاهد المرء فيها نفسه من حيث حالته الروحية وسلوكه وأقواله وأعماله، وأخلاقه وآدابه وبهذا يَزِنُ ويدرك وضعه.



إن الذين يعارضون الوحي الإلهي وهدي رسوله والذين يقومون بظلم المؤمنين، فإنهم سوف يلقون العذاب الإلهي بشكل لا محيص عنه وهذا هو القانون الإلهي الذي لا يتغير ولا يتبدل.



فمنبع الرحمة والمحبة الوحيد الذي يُؤَدّي بالعبد إلى بحر حب الله هو نبينا محمد ﷺ.



فإن بِذرة الحب، لا تنفلق ولا تخضرّ إلا في تُرْبَة محبة رسول الله ﷺ. فهو منبع الفيض الإلهي لروح وقلب المؤمن. فإن تربة محبة الرسول تُحوِّل العديد من القلوب المتحجرة والقاسية إلى صفاء الجوهر ونَقَائه.





يجب علينا ألاّ ننسى الجهود المكثفة التي بذلها الرسول ﷺ وحده من أجل تبليغ وتوصيل دعوة النجاة والفوز الأبدي إلى الإنسانية كلها، حيث كان العالم يسبح في ظلام الجاهلية الحالك وبناء على هذا يترتب علينا أن نثبت موقفنا ووضعنا من هديه ﷺ ونفكر أين نحن اليوم من تلك الجهود العظيمة.



ما أكثر سعادة وفوز وحظّ المؤمنين الذين نالوا نصيبهم من محبة الرسول ﷺ وصحبه الكرام والذين زيّنوا إيمانهم بالوَجْد، وقلوبَهم بحيوية وروحانية القرآن، وأرواحَهم بسعادة وحظ الخدمة والعمل، وضمائرَهم بجمال ونقاء الأخلاق؛ والذين يعيشون ويقضون حياتهم في حظ السعادة الأبدية...



يا ربّ! اجعلنا من مُحِبِّي وعُشاق النبي ﷺ الذين يعيشون الإسلام ويجعلونه نبراَسًا لحياتهم بحيث يتمثلون القرآن ويطبقونه في شتّى مجالات حياتهم!

اللّٰهم اجعل محبة الله ورسوله رأس مالنا للسعادة الأبدية.

آمين





المحتوى



القسم الثالث / ١٣٧



القسم الرابع / ٢٠٩











